تفسير سورة الأنبياء

وهى مكية . قال القرطبى : فى قول الجميع . وهى مائة واثنتا عشرة آية . وأخرج البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : بنو إسرائيل والكهف ومريم والأنبياء هن من العتاق الأول، وهنّ من تلادى [١] . وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم فى الحلية عن عامر بن ربيعة ، أنه نزل به رجل من العرب ، فأكرم عامر مثواه ، وكلم فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال: إنى استقطعت رسول الله ﷺ واديًا ما فى العرب واد أفضل منه ، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر : لاَ حاجة لى فى قطعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ [٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ** (١) **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** (٢) **لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ** (٣) **قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٤) **بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ** (٥) **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** (٦) **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٧) **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** (٨) **ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ** (٩) ﴾ .

يقال : قرب الشىء واقترب وقد اقترب الحساب ، أى قرب الوقت الذى يحاسبون فيه . قال الزجاج : المعنى: ﴿ **اقترب للناس** ﴾ وقت ﴿ **حسابهم**﴾ أى القيامة كما فى قوله : ﴿اقتربت الساعة ﴾ [القمر:١] واللام فى ﴿ **للناس** ﴾ متعلقة بالفعل ، وتقديمها هى ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة ، ومعنى اقتراب وقت الحساب : دنوه منهم ، لأنه فى كل ساعة أقرب إليهم من الساعة التى قبلها . وقيل : لأن كل ما هو آت قريب ، وموت كل إنسان قيام ساعته . والقيامة أيضًا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان فما بقى من الدنيا أقل مما مضى، والمراد بالناس : العموم . وقيل : المشركون مطلقًا. وقيل : كفار مكة وعلى هذا الوجه قيل : المراد بالحساب عذابهم يوم بدر ، وجملة: ﴿ **وهم فى غفلة معرضون** ﴾ فى محل نصب على الحال،

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٠٨ ، ٤٧٣٩) .

(٢) أبو نعيم فى الحلية ١/ ١٧٩ .

أي هم في غفلة بالدنيا معرضون عن الآخرة ، غير متأهبين بما يجب عليهم من الإيمان بالله . والقيام بفرائضه ، والانزجار عن مناهيه .

﴿ **ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث** ﴾ : « من » لابتداء الغاية . وقد استدلّ بوصف الذكر بكونه محدثا على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو : القرآن . وأجيب بأنه: لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد في النزول . فالمعنى محدث تنزيله ، وإنما النزاع في الكلام النفسي .

وهذه المسألة ، أعني قدم القرآن وحدوثه ، قد ابتلى بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية ، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي ، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده .والقصة أشهر من أن تذكر . ومن أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي . ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف . وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب ، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام ، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك ، فكان الامتناع من الإجابة إلى مادعوا إليه والتمسك بأذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه .

وقوله : ﴿ **إلا استمعوه** ﴾ استثناء مفرغ في محل نصب على الحال . وجملة : ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ في محل نصب على الحال أيضًا من فاعل استمعوه ،و﴿ **لاهية قلوبهم** ﴾ حال أيضًا ، والمعنى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الاستماع مع اللعب والاستهزاء ولهوة القلوب ، وقرئ : « لاهية » بالرفع كما قرئ : « محدث » بالرفع ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا** ﴾ النجوى : اسم من التناجي ، والتناجي لا يكون إلا سرًا، فمعنى إسرار النجوى: المبالغة في الإخفاء . وقد اختلف في محل الموصول على أقوال ، فقيل : إنه في محل رفع بدل من الواو في ﴿ **أسروا** ﴾ قاله المبرد وغيره . وقيل : هو في محل رفع على الذم . وقيل: هو فاعل لفعل محذوف ، والتقدير : يقول الذين ظلموا، واختار هذا النحاس ، وقيل : في محل نصب بتقدير أعني. وقيل : في محل خفض على أنه بدل من الناس ذكر ذلك المبرد. وقيل: هو في محل رفع على أنه فاعل ﴿ **أسروا** ﴾ على لغة من يجوز الجمع بين فاعلين ، كقولهم : أكلوني البراغيث ، ذكر ذلك الأخفش ، ومثله ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾

[المائدة : ٧١] ومنه قول الشاعر :

فاهتدين النبالُ للأغراض

وقول الآخر :

ولكن ديافيٌّ أبوه وأمه بحوران يعصرن السليط أقاربه

وقال الكسائي : فيه تقديم وتأخير ، أي والذين ظلموا أسرّوا النجوى . قال أبو عبيدة : أسروا هنا من الأضداد؛ يحتمل أن يكون بمعنى : أخفوا كلامهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى : أظهروه وأعلنوه ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم**﴾ هذه الجملة بتقدير القول قبلها ، أي قالوا : هل هذا الرسول إلا بشر مثلكم لا يتميز عنكم بشيء؟ويجوز أن تكون هذه الجملة بدلاً من ﴿**النجوى**﴾، وهل بمعنى النفي ، أي وأسروا هذا الحديث ، والهمزة في ﴿ **أفتأتون السحر** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر كنظائره ، وجملة : ﴿ **وأنتم تبصرون** ﴾ في محل نصب على الحال ، والمعنى : إذا كان بشرًا مثلكم ، وكان الذي جاء به سحرًا ، فكيف تجيبونه إليه وتتبعونه .

فأطلع الله نبيه ﷺ على ما تناجوا به ، وأمره الله سبحانه أن يجيب عليهم فقال : ﴿ **قل ربي يعلم القول في السماء والأرض** ﴾ أي لا يخفى عليه شيء مما يقال فيهما ، وفي مصاحف أهل الكوفة : ﴿ **قال ربي** ﴾ أي قال محمد : ربي يعلم القول ، فهو عالم بما تناجيتم به . قيل القراءة الأولى أولى ، لأنهم أسرّوا هذا القول ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وأمره أن يقول لهم هذا . قال النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة آيتين ﴿ **وهو السميع** ﴾ لكل ما يسمع ﴿ **العليم** ﴾ بكل معلوم ، فيدخل في ذلك ما أسروا دخولا أوليا .

﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ قال الزجاج : أي قالوا: الذي تأتي به أضغاث أحلام . قال القتيبي : أضغاث الأحلام الرؤيا الكاذبة . وقال اليزيدي : الأضغاث ما لم يكن له تأويل ، وهذا إضراب من جهة الله سبحانه حكاية لما وقع منهم ، وانتقال من حكاية قولهم السابق إلى حكاية هذا القول . ثم حكى سبحانه إضرابهم عن قولهم : أضغاث أحلام، قال: ﴿ **بل افتراه**﴾ أي بل قالوا: افتراه من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل . ثم حكى سبحانه عنهم أنهم أضربوا عن هذا وقالوا : ﴿ **بل هو شاعر** ﴾ وما أتى به من جنس الشعر ، وفي هذا الاضطراب منهم ، والتلوّن والتردد أعظم دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به ، لا يدرون ما هو ولا يعرفون كنهه ؟ أو كانوا قد علموا أنه حق ، وأنه من عند الله ، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصدر ويرموه بكل حجر ومدر ، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان . ثم بعد هذا كله ، قالوا : ﴿ **فليأتنا بآية** ﴾ وهذا جواب شرط محذوف ، أي إن لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية ﴿ **كما أرسل الأولون** ﴾ أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها، وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجر صفة لآية، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحونه

لأعطاهم ذلك، كما قال : ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : ٢٣] قال الزجاج : اقترحوا الآيات التى لا يقع معها إمهال ، فقال الله مجيباً لهم : ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية** ﴾ أى قبل مشركى مكة، ومعنى ﴿ **من قرية** ﴾ : من أهل قرية ، ووصف القرية بقوله : ﴿ **أهلكناها** ﴾ أى أهلكنا أهلها، أوأهلكناها بإهلاك أهلها . وفيه بيان سنة الله فى الأمم السالفة أن المقترحين إذا أعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة ، و«من » فى ﴿ **من قرية** ﴾ مزيدة للتأكيد ، والمعنى : ما آمنت قرية من القرى التى أهلكناها بسبب اقتراحهم قبل هؤلاء ، فكيف نعطيهم ما يقترحون ،وهم أسوة من قبلهم ، والهمزة فى ﴿ **أفهم يؤمنون** ﴾ للتقريع والتوبيخ ، والمعنى : إن لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إعطاء ما اقترحوا ، فكيف يؤمن هؤلاء لو أعطوا ما اقترحوا .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم : هل هذا إلا بشر مثلكم بقوله : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم** ﴾ أى لم نرسل قبلك إلى الأمم السابقة إلا رجالا من البشر ، ولم نرسل إليهم ملائكة كما قال سبحانه : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزّلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا ﴾ [الإسراء : ٩٥] .وجملة :﴿ **نوحى إليهم** ﴾ مستأنفة لبيان كيفية الإرسال ، ويجوز أن تكون صفة لـ ﴿ **رجالا** ﴾ أى متصفين بصفة الإيحاء إليهم . قرأ حفص وحمزة والكسائى : ﴿ **نوحى** ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : « يوحى » . ثم أمرهم الله بأن يسألوا أهل الذكر إن كانوا يجهلون هذا فقال : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ وأهل الذكر هم : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ومعنى ﴿ **إن كنتم لا تعلمون** ﴾ : إن كنتم لا تعلمون أن رسل الله من البشر ، كذا قال أكثر المفسرين . وقد كان اليهود والنصارى لا يجهلون ذلك ولا ينكرونه ، وتقدير الكلام : إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أهل الذكر . وقد استدل بالآية على أن التقليد جائز وهو خطأ ، ولو سلم لكان المعنى سؤالهم عن النصوص من الكتاب والسنة ، لا عن الرأى البحت ، وليس التقليد إلا قبول قول الغير دون حجته . وقد أوضحنا هذا فى رسالة بسيطة سميناها : « القول المفيد فى حكم التقليد ».

ثم لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر فقال : ﴿**وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ أى أن الرسل أسوة لسائر أفراد بنى آدم فى حكم الطبيعة يأكلون كما يأكلون ويشربون كما يشربون ، والجسد جسم الإنسان . قال الزجاج : هو واحد ، يعنى الجسد ينبئ عن جماعة ، أى وما جعلناهم ذوى أجساد لا يأكلون الطعام فجملة : ﴿ **لا يأكلون الطعام** ﴾ صفة لـ ﴿ **جسدا** ﴾ أى وما جعلناهم جسدًا مستغنيا عن الأكل ، بل هو محتاج إلى ذلك ﴿ **وما كانوا خالدين** ﴾ بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر ، وقد كانوا يعتقدون أن الرسل لا يموتون ، فأجاب الله عليهم بهذا .

وجملة : ﴿ **ثم صدقناهم الوعد** ﴾ معطوفة على جملة يدل عليها السياق ، والتقدير :

أوحينا إليهم ما أوحينا ﴿ **ثم صدقناهم الوعد** ﴾، أى أنجزنا وعدهم الذى وعدناهم بإنجائهم وإهلاك من كذبهم ، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **فأنجيناهم ومن نشاء** ﴾ من عبادنا المؤمنين ، والمراد: إنجاؤهم من العذاب وإهلاك من كفر بالعذاب الدنيوى ، والمراد بـ﴿ **المسرفين** ﴾ : المجاوزون للحدّ فى الكفر والمعاصى ، وهم المشركون .

وقد أخرج النسائى [١] عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وهم فى غفلة معرضون** ﴾ قال: «فى الدنيا». وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ فى الآية قال: « من أمر الدنيا » . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام** ﴾ أى فعل الأحلام إنما هى رؤيا رآها ﴿ **بل افتراه بل هو شاعر** ﴾ كل هذا قد كان منه ﴿**فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ كما جاء عيسى وموسى بالبينات والرسل ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها** ﴾ أى أن الرسل كانوا إذا جاؤوا قومهم بالبينات فلم يؤمنوا لم ينظروا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أهل مكة للنبى ﷺ : إذا كان ما تقوله حقًا ويسرّك أن نؤمن فحوّل لنا الصفا ذهبًا ، فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذى سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا لم يُنْظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : « بل أستأنى بقومى » ، فأنزل الله : ﴿**ما آمنت قبلهم** ﴾ الآية [٢] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام** ﴾ يقول : لم نجعلهم جسدًا ليس يأكلون الطعام ، إنما جعلناهم جسدًا يأكلون الطعام .

﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم**

(١) النسائى فى التفسير (٣٥١) . (٢) ابن جرير ١٤/ ٧٤ ، ٧٥ .

مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥) ﴾ .

نبه عباده على عظيم نعمته عليهم بقوله : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ صفة لـ﴿ **كتابا** ﴾ ، والمراد بالذكر هنا: الشرف ، أى فيه شرفكم كقوله: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] وقيل : ﴿ **فيه ذكركم** ﴾ أى ذكر أمر دينكم ، وأحكام شرعكم وما تصيرون إليه من ثواب أو عقاب . وقيل : فيه حديثكم ، قاله مجاهد . وقيل : مكارم أخلاقكم ومحاسن أعمالكم. وقيل: فيه العمل بما فيه حياتكم . قاله سهل بن عبد الله . وقيل : فيه موعظتكم ، والاستفهام فى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ للتوبيخ والتقريع ، أى أفلا تعقلون أن الأمر كذلك ، أولا تعقلون شيئا من الأشياء التى من جملتها ما ذكر .

ثم أوعدهم وحذرهم ما جرى على الأمم المكذبة ، فقال : ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة** ﴾ : « كم » فى محل نصب على أنها مفعول ﴿ **قصمنا** ﴾ وهى الخبرية المفيدة للتكثير . والقصم : كسر الشيء ودقه ، يقال : قصمت ظهر فلان : إذا كسرته ، وانقصمت سنه : إذا انكسرت ، والمعنى هنا : الإهلاك والعذاب .و أما الفصم بالفاء فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة ، وجملة :﴿ **كانت ظالمة** ﴾ فى محل جرّ صفة لقرية ، وفى الكلام مضاف محذوف ، أى وكم قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين ، أى كافرين بالله مكذبين بآياته ، والظلم فى الأصل : وضع الشىء فى غير موضعه ، وهم وضعوا الكفر فى موضع الإيمان ﴿ **وأنشأنا بعدها قوما آخرين** ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاك أهلها قومًا ليسوا منهم .

﴿ **فلما أحسوا بأسنا** ﴾ أى أدركوا أو رأوا عذابنا ، وقال الأخفش : خافوا وتوقعوا ، أو البأس : العذاب الشديد ﴿ **إذا هم منها يركضون** ﴾ الركض : الفرار والهرب والانهزام ، وأصله من : ركض الرجل الدابة برجليه ، ويقال : ركض الفرس: إذا كدّه بساقيه ، ثم كثر حتى قيل : ركض الفرس إذا عدا ، ومنه : ﴿ اركض برجلك ﴾ [ص : ٤٢] والمعنى : أنهم يهربون منها راكضين دوابهم . فقيل لهم : ﴿ **لا تركضوا** ﴾ أى لا تهربوا . قيل : إن الملائكة نادتهم بذلك عند فرارهم . وقيل : إن القائل لهم ذلك هم من هنالك من المؤمنين استهزاء بهم وسخرية منهم ﴿ **وارجعوا إلى ما أترفتم فيه** ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم وكفركم ، والمترف : المنعم، يقال: أترف فلان، أى وسع عليه فى معاشه ﴿ **ومساكنكم** ﴾ أى وارجعوا إلى مساكنكم التى كنتم تسكنونها وتفتخرون بها ﴿ **لعلكم تسألون**﴾ أى تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات ، وهذا على طريقة التهكم بهم والتوبيخ لهم . وقيل: المعنى : لعلكم تسألون عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول العذاب بكم . قال المفسرون وأهل الأخبار : إن المراد بهذه الآية : أهل حضور من اليمن ، وكان الله سبحانه قد بعث إليهم نبيًا اسمه شعيب بن ذى مهدم ، وقبره بجبل من جبال اليمن يقال له:

ضنن ، وبينه وبين حضور نحو بريد ، قالوا : وليس هو شعيبا صاحب مدين . قلت : وآثار القبر بجبل ضين موجودة ، والعامة من أهل تلك الناحية يزعمون أنه قبر قدم بن قادم .

﴿ **قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى قالوا لما قالت لهم الملائكة ﴿ **لا تركضوا** ﴾ : ويلنا ، أى ياهلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا مستوجبين العذاب بما قدّمنا . فاعترفوا على أنفسهم بالظلم الموجب للعذاب . ﴿ **فما زالت تلك دعواهم** ﴾ أى ما زالت هذه الكلمة دعواهم ، أى دعوتهم ، والكلمة هى قولهم : ﴿ **يا ويلنا** ﴾ أى يدعون بها ويرددونها ﴿ **حتى جعلناهم حصيدا** ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ، والحصيد هنا بمعنى المحصود ، ومعنى ﴿ **خامدين** ﴾ أنهم ميتون من خمدت النار إذا طفئت ، فشبه خمود الحياة بخمود النار ، كما يقال لمن مات : قد طفئ .

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ أى لم نخلقهما عبثًا ولا باطلاً ، بل للتنبيه على أن لهما خالقا قادرًا يجب امتثال أمره. وفيه إشارة إجمالية إلى تكوين العالم ، والمراد بما بينهما سائر المخلوقات الكائنة بين السماء والأرض على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها. ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ اللهو : ما يتلهى به . قيل : اللهو : الزوجة والولد . وقيل : الزوجة فقط . وقيل الولد فقط . قال الجوهرى : قد يكنى باللهو عن الجماع ، يدل على ما قاله قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألا يحسن اللهو أمثالى

ومنه قول الآخر :

وفيهنّ ملهى للصديق ومنظر

والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها ، وجواب لقوله : ﴿ **لاتخذناه من لدنا** ﴾ أى من عندنا ومن جهة قدرتنا لا من عندكم . قال المفسرون : أى من الحور العين ، وفى هذا رد على من قال بإضافة الصاحبة والولد إلى الله، تعالى عن ذلك علوًا كبيرا. وقيل : أراد الردّ على من قال: الأصنام أو الملائكة بنات الله. وقال ابن قتيبة : الآية ردٌ على النصارى. ﴿ **إن كنا فاعلين** ﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : ما كنا فاعلين . قال الفراء والمبرد والزجاج: يجوز أن تكون «إن» للنفى كما ذكره المفسرون ، أى ما فعلنا ذلك ولم نتخذ صاحبة ولا ولدًا ؛ ويجوز أن تكون للشرط ، أى إن كنا ممن يفعل ذلك لاتخذناه من لدنا . قال الفراء : وهذا أشبه الوجهين بمذهب العربية .

﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل** ﴾ هذا إضراب عن اتخاذ اللهو ، أى دع ذلك الذى قالوا فإنه كذب وباطل ، بل شأننا أن نرمى بالحق على الباطل ﴿ **فيدمغه** ﴾ أى يقهره ،وأصل الدمغ: شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ،ومنه الدامغة. قال الزجاج : المعنى: نذهبه ذهاب الصغار والإذلال ،

وذلك أن أصله إصابة الدماغ بالضرب. قيل: أراد بالحق : الحجة ، وبالباطل : شبههم . وقيل: الحق : المواعظ ، والباطل : المعاصى . وقيل : الباطل : الشيطان . وقيل : كذبهم ووصفهم الله سبحانه بغير صفاته ﴿ **فإذا هو زاهق** ﴾ أى زائل ذاهب ، وقيل : هالك تالف ، والمعنى متقارب ، و« إذا » هى الفجائية ﴿ **ولكم الويل مما تصفون** ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم لله بما لا يجوز عليه . وقيل : الويل : وادٍ فى جهنم ، وهو وعيد لقريش بأن لهم من العذاب مثل الذى لأولئك ؛ ومن : هى التعليلية .

﴿ **وله من فى السموات والأرض** ﴾ عبيدًا وملكًا ، وهو خالقهم ورازقهم ومالكهم ، فكيف يجوز أن يكون له بعض مخلوقاته شريكا يعبد كما يعبد ، وهذه الجملة مقررة لما قبلها ﴿ **ومن عنده** ﴾ يعنى الملائكة ، وفيه ردّ على القائلين بأن الملائكة بنات الله ، وفى التعبير عنهم بكونهم ﴿ عنده ﴾ إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم ، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك،ثم وصفهم بقوله: ﴿**لا يستكبرون عن عبادته** ﴾ أى لا يتعاظمون ولا يأنفون عن عبادة الله سبحانه والتذلل له ﴿**ولا يستحسرون** ﴾ أى لا يعيون ، مأخوذ من الحسير ، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، يقال : حسر البعير يحسر حسورًا : أعيا وكلّ ، واستحسر وتحسر : مثله وحسرته أنا حسرًا ، يتعدى ولا يتعدى. قال ابن زيد: لا يكلون ، وقال ابن الأعرابى : لا يفشلون . قال الزجاج : معنى الآية: أن هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله، عباد الله لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] وقيل : المعنى : لا ينقطعون عن عبادته . وهذه المعانى متقاربة .

﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ أى ينزهون الله سبحانه دائما لا يضعفون عن ذلك ولا يسأمون . وقيل : يصلون الليل والنهار . قال الزجاج : مجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا لا يشغلنا عن النفس شيء ، فكذلك تسبيحهم دائم ، وهذه الجملة إما مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، أو فى محل نصب على الحال ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض** ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الاستفهام : الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء ، و«أم»:هى المنقطعة ، والهمزة لإنكار الوقوع . قال المبرد : إن « أم » هنا بمعنى هل ، أى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدّر «أم» مع الاستفهام ، فتكون « أم » المنقطعة ، فيصح المعنى، و﴿ **من الأرض**﴾ متعلق باتخذوا ، أو بمحذوف هو صفة لآلهة ، ومعنى ﴿ **هم ينشرون** ﴾ : هم يبعثون الموتى ، والجملة صفة لآلهة ، وهذه الجملة هى التى يدور عليها الإنكار والتجهيل ، لا نفس الاتخاذ ، فإنه واقع منهم لا محالة . والمعنى : بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى ، وليس الأمر كذلك ، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك. قرأ الجمهور: ﴿**ينشرون** ﴾ بضم الياء وكسر الشين من أنشره ، أى أحياه ، وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أى يحيون ولا يموتون .

ثم إنه سبحانه أقام البرهان على بطلان تعدّد الآلهة ، فقال : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ أى لو كان فى السموات والأرض آلهة معبودون غير الله لفسدتا ، أى لبطلتا ، يعنى السموات والأرض بما فيهما من المخلوقات ، قال الكسائى وسيبويه والأخفش والزجاج وجمهور النحاة : إن « إلا » هنا ليست للاستثناء بل بمعنى غير صفة لآلهة ، ولذلك ارتفع الاسم الذى بعدها وظهر فيه إعراب غير التى جاءت « إلا » بمعناها ، ومنه قول الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك ، إلا الفرقدان

وقال الفراء : إن « إلا » هنا بمعنى سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهة سوى الله لفسدتا، ووجه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادرًا على الاستبداد بالتصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان، أى تنزّه عزّ وجلّ عما لا يليق به من ثبوت الشريك له ، وفيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربّ سبحانه عما لا يليق به. ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ هذه الجملة مستأنفة مبينة أنه سبحانه لقوّة سلطانه وعظيم جلاله لا يسأله أحد من خلقه عن شىء من قضائه وقدره ﴿ **وهم** ﴾ أى العباد ﴿ **يسألون** ﴾ عما يفعلون، أى يسألهم الله عن ذلك لأنهم عبيده . وقيل : إن المعنى : أنه سبحانه لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . قيل : والمراد بذلك: أنه سبحانه بين لعباده أن من يسأل عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلح لأن يكون إلها .

﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ أى بل اتخذوا ، وفيه إضراب وانتقال من إظهار بطلان كونها آلهة بالبرهان السابق ، إلى إظهار بطلان اتخاذها آلهة مع توبيخهم بطلب البرهان منهم، ولهذا قال : ﴿ **قل هاتوا برهانكم** ﴾ على دعوى أنها آلهة ، أو على جواز اتخاذ آلهة سوى الله ولا سبيل لهم إلى شىء من ذلك ، لا من عقل ولا نقل ، لأن دليل العقل قد مرّ بيانه ، وأما دليل النقل فقد أشار إليه بقوله : ﴿ **هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** ﴾ أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع ذكر أمتى وذكر الأمم السالفة وقد أقمته عليكم وأوضحته لكم ، فأقيموا أنتم برهانكم . وقيل : المعنى : هذا القرآن وهذه الكتب التى أنزلت قبلى فانظروا : هل فى واحد منها أن الله أمر باتخاذ إله سواه . قال الزجاج : قيل : لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهًا غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟ وقيل معنى الكلام : الوعيد والتهديد ، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف قرآ : « هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » بالتنوين وكسر الميم ، وزعم أنه لا وجه لهذه القراءة . وقال الزجاج فى توجيه هذه القراءة : إن المعنى . هذا ذكر مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكر من قبلى. وقيل : ذكر كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى . ثم لما توجهت الحجة عليهم ذمهم بالجهل بمواضع الحق فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق** ﴾ وهذا إضراب من جهته سبحانه وانتقال من

تبكيتهم بمطالبتهم بالبرهان إلى بيان أنه لا يؤثر فيهم إقامة البرهان لكونهم جاهلين للحق لا يميزون بينه وبين الباطل . وقرأ ابن محيصن والحسن : «الحق» بالرفع على معنى هذا الحق ، أو هو الحق ، وجملة : ﴿ **فهم معرضون** ﴾ تعليل لما قبله من كون أكثرهم لا يعلمون : أى فهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم معرضون عن قبول الحق مستمرّون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ، فلا يتأملون حجة ، ولا يتدبرون فى برهان ، ولا يتفكرون فى دليل.

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه** ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائى: ﴿ **نوحى** ﴾ بالنون ، وقرأ الباقون بالياء : أى نوحى إليه ﴿ **أنه لا إله إلا أنا** ﴾ وفى هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدّم من قوله : ﴿ **هذا ذكر من معى** ﴾ وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته ، فقال : ﴿**فاعبدون** ﴾ فقد اتضح لكم دليل العقل ، ودليل النقل وقامت عليكم حجة الله .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم** ﴾ قال : شرفكم . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : فيه حديثكم . وفى رواية عنه قال : فيه دينكم . وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : بعث الله نبيًا من حمير يقال له : شعيب ، فوثب إليه عبد فضربه بعصا ، فسار إليهم بختنصر فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبق منهم شىء ، وفيهم أنزل الله : ﴿ **وكم قصمنا** ﴾ إلى قوله: ﴿ **خامدين** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن الكلبى فى قوله : ﴿**وكم قصمنا من قرية** ﴾ قال : هى حضور بنى أزد ، وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وارجعوا إلى ما أترفتم فيه** ﴾ قال : ارجعوا إلى دوركم وأموالكم .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فما زالت تلك دعواهم** ﴾ قال : هم أهل حضور كانوا قتلوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم بختنصر فقتلهم ، وفى قوله : ﴿ **جعلناهم حصيدا خامدين** ﴾ قال : بالسيف ضرب الملائكة وجوههم حتى رجعوا إلى مساكنهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن وهب قال : حدثنى رجل من الجزريين قال : كان باليمن قريتان ، يقال لإحداهما: حضور، وللأخرى : قلابة ، فبطروا وأترفوا حتى ما كانوا يغلقون أبوابهم ، فلما أترفوا بعث الله إليهم نبيًا فدعاهم فقتلوه ، فألقى الله فى قلب بختنصر أن يغزوهم ، فجهز لهم جيشًا ، فقاتلوهم فهزموا جيشه فرجعوا منهزمين إليه ، فجهز إليهم جيشا آخر أكثف من الأوّل ، فهزموهم أيضًا ؛ فلما رأى بختنصر ذلك غزاهم هو بنفسه ، فقاتلوهم فهزمهم حتى خرجوا منها يركضون ، فسمعوا مناديًا يقول : ﴿ **لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم** ﴾ فرجعوا فسمعوا صوتًا مناديًا يقول : ياثارات النبىّ فقتلوا بالسيف، فهى التى قال الله : ﴿ **وكم قصمنا من قرية** ﴾ إلى قوله : ﴿ **خامدين** ﴾. قلت : وقرى حضور معروفة الآن بينها وبين مدينة صنعاء نحو بريد فى جهة الغرب منها . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حصيدًا خامدين﴾ قال : كخمود النار إذا طفئت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ قال: اللهو: الولد. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فى قوله : ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا** ﴾ قال : النساء . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يستحسرون** ﴾ يقول : لا يرجعون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**لا يسأل عما يفعل** ﴾ قال : بعباده ﴿ **وهم يسألون** ﴾ قال : عن أعمالهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما فى الأرض قوم أبغض إلىّ من القدرية ، وما ذلك إلا أنهم لا يعلمون قدرة الله ، قال الله: ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ .

﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)** ﴾ .

قوله : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ هؤلاء القائلون هم خزاعة ، فإنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وقيل : هم اليهود ، ويصح حمل الآية على كل من جعل لله ولدًا . وقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله، وقالت طائفة من العرب : الملائكة بنات الله . ثم نزه عزّ وجلّ نفسه . فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزيها له عن ذلك ، وهو مقول على ألسنة العباد . ثم أضرب عن قولهم وأبطله فقال : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أى ليسوا كما قالوا ، بل هم عباد الله سبحانه مكرمون بكرامته لهم ، مقرّبون عنده . وقرئ : «مكرمون» بالتشديد، وأجاز الزجاج والفراء نصب عباد على معنى : بل اتخذ عبادًا ، ثم وصفهم بصفة أخرى فقال : ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ أى لا يقولون شيئا حتى يقوله أو يأمرهم به . كذا قال ابن قتيبة وغيره ، وفى هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم . وقرئ : « لا يسبقونه » بضم الباء من سبقته أسبقه ﴿ **وهم بأمره يعملون** ﴾ أى هم العاملون بما يأمرهم الله به ، التابعون له المطيعون لربهم .

﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها ، أى يعلم ما عملوا وما هم عاملون ، أويعلم ما بين أيديهم وهو الآخرة ، وما خلفهم وهو الدنيا ، ووجه التعليل أنهم إذا علموا بأنه عالم بما قدّموا وأخروا ، لم يعملوا عملا ولم يقولوا قولا إلا بأمره ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ أن يشفع الشافعون له ، وهو من رضى عنه ، وقيل : هم أهل لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون في الدار الآخرة ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ أى من خشيتهم منه فالمصدر مضاف إلى المفعول ، والخشية : الخوف مع التعظيم ، والإشفاق : الخوف مع التوقع والحذر ، أى لا يأمنون مكر الله.

﴿ **ومن يقل منهم إنى إله من دونه** ﴾ أى من يقل من الملائكة إنى إله من دون الله. قال المفسرون: عنى بهذا إبليس ، لأنه لم يقل أحد من الملائكة إنى إله إلا إبليس. وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة (١) ﴿ **فذلك نجزيه جهنم** ﴾ أى فذلك القائل على سبيل الفرض ، والتقدير : نجزيه جهنم بسبب هذا القول الذى قاله ، كما نجزى غيره من المجرمين ﴿ **كذلك نجزى الظالمين**﴾ أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الظالمين ، أو مثل ما جعلنا جزاء هذا القائل جهنم ، فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة في غير موضعها ، والمراد بالظالمين المشركون .

﴿ **أولم ير الذين كفروا** ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدّر ، والرؤية هى القلبية، أى ألم يتفكروا أو لم يعلموا ﴿ **أن السموات والأرض كانتا رتقا** ﴾ قال الأخفش : إنما قال : ﴿**كانتا** ﴾ لأنهما صنفان أى جماعتا السموات والأرضين كما قال سبحانه : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ [فاطر : ٤١]. وقال الزجاج: إنما قال : ﴿ **كانتا** ﴾ لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد ، لأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . والرتق : السدّ ضد الفتق يقال : رتقت الفتق أرتقه فارتتق ، أى التأم ، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ، يعنى أنهما كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ففصل الله بينهما ، وقال: ﴿ **رتقا** ﴾ ولم يقل : « رتقين » لأنه مصدر، والتقدير: كانتا ذواتى رتق ، ومعنى ﴿ **ففتقناهما** ﴾: ففصلناهما ، أى فصلنا بعضهما من بعض ، فرفعنا السماء ، وأبقينا الأرض مكانها ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾ أى أحيينا بالماء الذى ننزله من السماء كل شىء ، فيشمل الحيوان والنبات ، والمعنى : أن الماء سبب حياة كل شىء . وقيل : المراد بالماء هنا : النطفة ، وبه قال أكثر المفسرين، وهذا احتجاج على المشركين بقدرة الله سبحانه وبديع صنعه ، وقد تقدم تفسير هذه الآية ، والهمزة فى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ للإنكار عليهم ، حيث لم يؤمنوا مع وجود ما يقتضيه من الآيات الربانية.

﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى** ﴾ أى جبالا ثوابت ﴿ **أن تميد بهم** ﴾ الميد التحرّك والدوران ، أى لئلا تتحرك وتدور بهم ، أو كراهة ذلك ، وقد تقدّم تفسير ذلك فى النحل مستوفى ﴿**وجعلنا**

---

(١) فى المطبوعة : « الأنبياء » ، والتصويب من القرطبى.

فيها ﴾ أى فى الرواسى، أوفى الأرض ﴿ **فجاجا** ﴾ قال أبو عبيدة: هى المسالك. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج و﴿ **سبلا** ﴾ تفسير للفجاج ، لأن الفج قد لا يكون طريقا نافذًا مسلوكًا ﴿ **لعلهم يهتدون** ﴾ إلى مصالح معاشهم ، وما تدعو إليه حاجاتهم ﴿**وجعلنا السماء سقفا محفوظا** ﴾ من أن يقع ويسقط على الأرض كقوله : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض ﴾ [الحج : ٦٥]. وقال الفراء: محفوظًا بالنجوم من الشيطان كقوله : ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ [الحجر: ١٧] . وقيل : محفوظًا : لا يحتاج إلى عماد، وقيل المراد بالمحفوظ هنا : المرفوع . وقيل : محفوظًا عن الشرك والمعاصى . وقيل : محفوظا عن الهدم والنقض﴿ **وهم عن آياتها معرضون** ﴾ أضاف الآيات إلى السماء، لأنها مجعولة فيها ، وذلك كالشمس والقمر ونحوهما. ومعنى الإعراض : أنهم لا يتدبرون فيها، ولا يتفكرون فيما توجبه من الإيمان .

﴿ **وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر** ﴾ هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم ، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه ، والنهار ليتصرفوا فيه فى معايشهم ، وخلق الشمس والقمر أى جعل الشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ليعلموا عدد الشهور والحساب كما تقدم بيانه فى سبحان ﴿ **كل فى فلك يسبحون** ﴾ أى كل واحد من الشمس والقمر والنجوم فى فلك يسبحون ، أى يجرون فى وسط الفلك ، ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء ، والجمع فى الفعل باعتبار المطالع ، قال سيبويه : إنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل ، وجعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل ، جعل الضمير عنهنّ ضمير العقلاء ،ولم يقل يسبحن أو تسبح ، وكذا قال الفراء. قال الكسائى : إنما قال : ﴿ **يسبحون** ﴾ لأنه رأس آية. والفلك : واحد أفلاك النجوم. وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فلكة المغزل لاستدارتها .

﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا ﴿ **أفإن مت** ﴾ بأجلك المحتوم ﴿ **فهم الخالدون** ﴾ أى أفهم الخالدون ؟ قال الفراء : جاء بالفاء لتدل على الشرط لأنه جواب قولهم سيموت . قال : ويجوز حذف الفاء وإضمارها، والمعنى : إن متّ فهم يموتون أيضًا ، فلا شماتة فى الموت . وقرئ : ﴿ **مت** ﴾ بكسر الميم وضمها لغتان ، وكان سبب نزول هذه الآية قول المشركين فيما حكاه الله عنهم: ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور: ٣٠]. ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ أى ذائقة مفارقة جسدها ، فلا يبقى أحد من ذوات الأنفس المخلوقة كائنا ما كان . ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ أى نختبركم بالشدة والرخاء، لننظر كيف شكركم وصبركم. والمراد: أنه سبحانه يعاملهم معاملة من يبلوهم، و﴿ **فتنة** ﴾ مصدر لـ ﴿ **نبلوكم** ﴾ من غير لفظه ﴿ **وإلينا ترجعون** ﴾ لا إلى غيرنا فنجزيكم بأعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود : إن الله عزّ وجلّ صاهر الجنّ فكانت بينهم الملائكة، فقال الله تكذيبًا لهم : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أى الملائكة ليس كما

قالوا ، بل عباد أكرمهم بعبادته . ﴿ **لا يسبقونه بالقول** ﴾ يثنى عليهم ﴿ **ولا يشفعون**﴾ قال : لا تشفع الملائكة يوم القيامة ﴿ **إلا لمن ارتضى** ﴾ قال : لأهل التوحيد لمن رضى عنه . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال : قول : لا إله إلا الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والبيهقى في البعث عن ابن عباس فى الآية قال : الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله .

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقى فى البعث عن جابر ؛ أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى : ﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ قال : « إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » (١) . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كانتا رتقا ففتقناهما** ﴾ قال: فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات. وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **كانتا رتقا** ﴾ قال : لايخرج منهما شىء، وذكر مثل ما تقدم . وأخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية عنه أيضا من طريق أخرى . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **كانتا رتقا** ﴾ قال : ملتصقتين .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ قال : نطفة الرجل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿**وجعلنا فيها فجاجا سبلا** ﴾ قال : بين الجبال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كل فى فلك** ﴾ قال : دوران ﴿**يسبحون** ﴾ قال : يجرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عنه: ﴿ **كل فى فلك** ﴾ قال : فلك كفلكة المغزل ﴿ **يسبحون** ﴾ قال : يدورون فى أبواب السماء ، كما تدور الفلكة فى المغزل . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : هو فلك السماء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى عن عائشة قالت : دخل أبو بكر على النبي ﷺ وقد مات فقبله وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه ، ثم تلا : ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد** ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ قال: نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلالة .

﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ

(١) صححه الحاكم ٢/٣٨٢ على شرط الشيخين وقال الذهبى : « على شرط مسلم » .

متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين (٣٨) لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون (٣٩) بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون (٤٠) ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون (٤١) قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون (٤٢) أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون (٤٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذا رآك الذين كفروا** ﴾ يعنى المستهزئين من المشركين ﴿ **إن يتخذونك إلا هزوا**﴾ أى ما يتخذونك إلا مهزوءا بك ، والهزؤ : السخرية ،وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ [الحجر : ٩٥]، والمعنى : ما يفعلون بك إلا اتخذوك هزؤا ﴿ **أهذا الذى يذكر آلهتكم** ﴾ هو على تقدير القول، أى يقولون: أهذا الذى ، فعلى هذا هو جواب إذا، ويكون قوله : ﴿ **إن يتخذونك إلا هزوا** ﴾ اعتراضًا بين الشرط وجوابه ، ومعنى يذكرها : يعيبها. قال الزجاج : يقال : فلان يذكر الناس ، أى يغتابهم ، ويذكرهم بالعيوب، وفلان يذكر الله ، أى يصفه بالتعظيم ويثنى عليه ، وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه ، وعلى ما قالوا لا يكون الذكر فى كلام العرب العيب ، وحيث يراد به العيب يحذف منه السوء ، قيل : ومن هذا قول عنترة :

لا تذكرى مهرى وما أطعمته   فيكون جلدك مثل جلد الأجرب

أى لا تعيبى مهرى ، وجملة ﴿ **وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وهم بالقرآن كافرون ، أو هم بذكر الرحمن الذى خلقهم كافرون ، والمعنى : أنهم يعيبون على النبى ﷺ أن يذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم بذكر الله سبحانه بما يليق به من التوحيد ، أو القرآن كافرون ، فهم أحق بالعيب لهم والإنكار عليهم ، فالضمير الأوّل مبتدأ خبره ﴿ **كافرون** ﴾ و ﴿ **بذكر** ﴾ متعلق بالخبر ، والضمير الثانى تأكيد .

﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾ أى جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من العجل . قال الفراء: كأنه يقول : بنيته وخلقته من العجلة وعلى العجلة . وقال الزجاج : خوطبت العرب بما تعقل ، والعرب تقول للذى يكثر منه الشيء : خلقت منه كما تقول : أنت من لعب ، وخلقت من لعب، تريد المبالغة فى وصفه بذلك . ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿ وكان الإنسان عجولا﴾ [الإسراء:١١] . والمراد بالإنسان : الجنس . وقيل : المراد بالإنسان: آدم ، فإنه لما خلقه الله ونفخ فيه الروح صار الروح في رأسه، فذهب لينهض قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه فوقع ، فقيل : خلق الإنسان من عجل ، كذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدّى والكلبى ومجاهد ،

وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى : العجل : الطين بلغة حمير . وأنشدوا :

والنخل تنبت بين الماء والعجل

وقيل : إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث ،وهو القائل : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** ﴾ [الأنفال : ٣٢]. وقيل : نزلت في قريش لأنهم استعجلوا العذاب . وقال الأخفش: معنى خلق الإنسان من عجل أنه قيل له كن فكان. وقيل : إن هذه الآية من المقلوب، أى خلق العجل من الإنسان وقد حكى هذا عن أبى عبيدة والنحاس ، والقول الأوّل أولى ﴿**سأريكم آياتى** ﴾ أى سأريكم نقماتى منكم بعذاب النار ﴿ **فلا تستعجلون** ﴾ أى لاتستعجلونى بالإتيان به ، فإنه نازل بكم لامحالة : وقيل : المراد بالآيات : مادل على صدق محمد ﷺ من المعجزات وما جعله الله له من العاقبة المحمودة ، والأول أولى ، ويدل عليه قولهم: ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ أى متى حصول هذا الوعد ، الذى تعدنا به من العذاب ، قالوا ذلك على جهة الاستهزاء والسخرية . وقيل : المراد بالوعد هنا : القيامة ، ومعنى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ : إن كنتم يا معشر المسلمين صادقين فى وعدكم، والخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين الذين يتلون الآيات القرآنية المنذرة بمجيء الساعة وقرب حضور العذاب .

وجملة : ﴿ **لو يعلم الذين كفروا** ﴾ وما بعدها مقرّرة لما قبلها ،أى لو عرفوا ذلك الوقت، وجواب لو محذوف ، والتقدير: لو علموا الوقت الذى ﴿ **لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون**﴾ لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج فى تقدير الجواب : لعلموا صدق الوعد . وقيل : لو علموه ما أقاموا على الكفر. وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة ، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية ، ويدلّ عليه قوله : ﴿ **بل تأتيهم بغتة** ﴾ وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى الأمام والخلف لكونهما أشهر الجوانب فى استلزام الإحاطة بها للإحاطة بالكل ، بحيث لايقدرون على دفعها من جانب من جوانبهم ، ومحل ﴿**حين لا يكفون** ﴾ النصب على أنه مفعول العلم ، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه ، ومعنى ﴿ **ولاهم ينصرون** ﴾ : ولا ينصرهم أحد من العباد فيدفع ذلك عنهم ، وجملة ﴿ **بل تأتيهم بغتة** ﴾ معطوف على ﴿ **يكفون** ﴾ : أى لا يكفونها بل تأتيهم العدّة أو النار أو الساعة بغتة، أى فجأة ﴿ **فتبهتهم** ﴾ قال الجوهرى : بهته بهتًا أخذه بغتة ، وقال الفراء: فتبهتهم ، أى تحيرهم . وقيل : فتفجؤهم ﴿ **فلا يستطيعون ردها** ﴾ أى صرفها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فالضمير راجع إلى النار. وقيل : راجع إلى الوعد بتأويله بالعدة . وقيل : راجع إلى الحين بتأويله بالساعة ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ أى يمهلون ويؤخرون لتوبة واعتذار.

وجملة ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك** ﴾ مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ وتعزيته ، كأنه قال : إن استهزأ بك هؤلاء فقد فعل ذلك بمن قبلك من الرسل على كثرة عددهم وخطر شأنهم

﴿ **فحاق بالذين سخروا منهم** ﴾ أى أحاط ودار بسبب ذلك بالذين سخروا من أولئك الرسل وهزؤا بهم ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ : « ما » موصولة ،أو مصدرية ، أى فأحاط بهم الأمر الذى كانوا يستهزئون به ، أو فأحاط بهم استهزاؤهم ، أى جزاؤه ، على وضع السبب موضع المسبب ، أو نفس الاستهزاء ، إن أريد به العذاب الأخروى . ﴿ **قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن** ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم. والكلاءة : الحراسة والحفظ، يقال: كلأه الله كلاء بالكسر، أى حفظه وحرسه . قال ابن هرمة :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشىء ما كان يرزؤها

أى قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ: من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار من بأس الرحمن وعذابه الذى تستحقون حلوله بكم ونزوله عليكم ؟ وقال الزجاج: معناه: من يحفظكم من بأس الرحمن. وقال الفراء: المعنى: من يحفظكم مما يريد الرحمن إنزاله بكم من عقوبات الدنيا والآخرة . وحكى الكسائى والفراء : من يكلوكم بفتح اللام وإسكان الواو ﴿ **بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾ أى عن ذكره سبحانه فلا يذكرونه ولا يخطر ببالهم ، بل يعرضون عنه ، أو عن القرآن، أو عن مواعظ الله ، أو عن معرفته .

﴿ **أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا** ﴾ : « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل ، والهمزة للإضراب والانتقال عن الكلام السابق المشتمل على بيان جهلهم بحفظه سبحانه إياهم إلى توبيخهم وتقريعهم باعتمادهم على من هو عاجز عن نفع نفسه ، والدفع عنها. والمعنى : بل لهم آلهة تمنعهم من عذابنا . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم . ثم وصف آلهتهم هذه التى زعموا أنها تنصرهم بما يدلّ على الضعف والعجز فقال : ﴿ **لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون** ﴾ أى هم عاجزون عن نصر أنفسهم فكيف يستطيعون أن ينصروا غيرهم ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ ، أى ولا هم يجارون من عذابنا . قال ابن قتيبة : أى لا يجيرهم منا أحد ، لأن المجير صاحب الجار ، والعرب تقول : صحبك الله ، أى حفظك وأجارك ، ومنه قول الشاعر :

ينادى بأعلى صوته متعوّذًا ليصحب منها والرماح دوانى

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى مجير منه . قال المازنى : هو من أصحبت الرجل : إذا منعته.

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن السدّى قال : مرّ النبىّ ﷺ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبى سفيان : هذا نبى بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان فقال : ما تنكرون أن يكون لبنى عبد مناف نبىّ ، فسمعها النبى ﷺ ، فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه وقال : « ما أراك منتهيًا حتى يصيبك ما أصاب عمك » ، وقال لأبى سفيان: « أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية » فنزلت هذه الآية: ﴿**وإذا رآك الذين كفروا**﴾.

قلت : ينظر من الذى روى عنه السدّى ؟ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : لما نفخ فى آدم الروح صار في رأسه فعطس فقال : الحمد لله ، فقالت الملائكة : يرحمك الله ، فذهب لينهض قبل أن تمور فى رجليه فوقع ، فقال الله: ﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾. وقد أخرج نحو هذا ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير[١] . وأخرج نحوه أيضا ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن مجاهد[٢]. وكذا أخرج ابن المنذر عن ابن جريج. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قل من يكلؤكم** ﴾ قال : يحرسكم ، وفى قوله : ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ قال : لا ينصرون . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا هم منا يصحبون** ﴾ قال : لا يجارون . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى الآية : قال لا يمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾ .

لما أبطل كون الأصنام نافعة أضرب عن ذلك منتقلا إلى بيان أن ما هم فيه من الخير والتمتع بالحياة العاجلة هو من الله ، لا من مانع يمنعهم من الهلاك ، ولا من ناصر ينصرهم على أسباب التمتع فقال : ﴿ **بل متعنا هؤلاء وآباءهم** ﴾ يعنى أهل مكة متعهم الله بما أنعم عليهم ﴿ **حتى طال عليهم العمر** ﴾ فاغترّوا بذلك وظنوا أنهم لا يزالون كذلك ، فرد سبحانه عليهم قائلا : ﴿ **أفلا يرون** ﴾ أى أفلا ينظرون فيرون ﴿ **أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ أى أرض الكفر ننقصها

(١) ابن جرير ١٧/ ١٩ . (٢) ابن جرير ١٧/ ٢٠ .

بالظهور عليها من أطرافها فنفتحها بلدًا بعد بلد وأرضًا بعد أرض ، وقيل : ننقصها بالقتل والسبى ، وقد مضى فى الرعد الكلام على هذا مستوفى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أفهم الغالبون** ﴾ للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، أى كيف يكونون غالبين بعد نقصنا لأرضهم من أطرافها ؟ وفى هذا إشارة إلى أن الغالبين هم المسلمون .

﴿ **قل إنما أنذركم بالوحى** ﴾ أى أخوّفكم وأحذركم بالقرآن ، وذلك شأنى وما أمرنى الله به، وقوله : ﴿ **ولا يسمع الصم الدعاء** ﴾ إما من تتمة الكلام الذى أمر النبى ﷺ أن يقوله لهم، أو من جهة الله تعالى. والمعنى: أن من أصم الله سمعه وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة لا يسمع الدعاء . قرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السميقع: « ولا يسمع » بضم الياء وفتح الميم على ما لم يسم فاعله . وقرأ ابن عامر وأبو حيوة ويحيى بن الحارث بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم ، أى إنك يامحمد لا تسمع هؤلاء . قال أبو على الفارسى : ولو كان كما قال ابن عامر لكان : إذا ما تنذرهم ، فيحسن نظم الكلام ، فأما ﴿**إذا ما ينذرون** ﴾ فحسن أن يتبع قراءة العامة . وقرأ الباقون بفتح الياء وفتح الميم ورفع الصم على أنه الفاعل . ﴿ **ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك** ﴾ المراد بالنفحة : القليل ، مأخوذ من نفح المسك قاله ابن كيسان ، ومنه قول الشاعر :

وعمرة من سروات النساء تنفَّحُ بالمسك أردانها

وقال المبرد : النفحة : الدفعة من الشىء التى دون معظمه ، يقال : نفحه نفحة بالسيف إذا ضربه ضربة خفيفة . وقيل: هى النصيب، وقيل : هى الطرف . والمعنى متقارب ، أى ولئن مسهم أقل شىء من العذاب ﴿ **ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى ليدعونّ على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفون عليها بالظلم .

﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾ الموازين جمع ميزان ، وهو يدلّ على أن هناك موازين ، ويمكن أن يراد ميزان واحد ، عبر عنه بلفظ الجمع ، وقد ورد فى السنة فى صفة الميزان ما فيه كفاية ، وقد مضى فى الأعراف، وفى الكهف في هذا ما يغنى عن الإعادة . والقسط : صفة للموازين .قال الزجاج : قسط : مصدر يوصف به تقول : ميزان قسط وموازين قسط ، والمعنى : ذوات قسط ، والقسط : العدل . وقرئ : « القصط » بالصاد والطاء ، ومعنى ﴿ **ليوم القيامة** ﴾ لأهل يوم القيامة . وقيل : اللام بمعنى فى ، أى فى يوم القيامة ﴿**فلا تظلم نفس شيئا**﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل** ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر برفع مثقال على أن كان تامة ، أى إن وقع أو وجد مثقال حبة . وقرأ الباقون بنصب المثقال على تقدير : وإن كان العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة ، كذا قال الزجاج. وقال أبو علىّ الفارسى : وإن كان الظلامة مثقال حبة . قال الواحدى : وهذا أحسن لتقدّم قوله : ﴿ **فلا تظلم نفس شيئا** ﴾ ، و مثقال الشىء ميزانه ، أى وإن كان فى غاية

الخفة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثل فى الصغر ﴿ **أتينا بها** ﴾ قرأ الجمهور بالقصر ، أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ، و﴿ **بها** ﴾ أى بحبة الخردل . وقرأ مجاهد وعكرمة : «آتينا» بالمدّ على معنى : جازينا بها يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة جازى ﴿ **وكفى بنا حاسبين** ﴾ أى كفى بنا محصين . والحسب فى الأصل معناه : العدّ ، وقيل : كفى بنا عالمين ، لأن من حسب شيئًا علمه وحفظه ، وقيل : كفى بنا مجازين على ما قدموه من خير وشرّ .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل ما أجمله سابقًا بقوله : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ [الأنبياء : ٧] فقال : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين** ﴾ المراد بالفرقان هنا : التوراة ، لأن فيها الفرق بين الحلال والحرام ، وقيل : الفرقان هنا هو : النصر على الأعداء كما فى قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ [الأنفال : ٤١] . قال الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ، ومعنى ﴿ **وضياء** ﴾ أنهم استضاؤوا بها فى ظلمات الجهل والغواية ، ومعنى ﴿ **وذكرا** ﴾ الموعظة ، أى أنهم يتعظون بما فيها ، وخصّ المتقين لأنهم الذين ينتفعون بذلك ، ووصفهم بقوله : ﴿ **الذين يخشون ربهم بالغيب** ﴾ لأن هذه الخشية تلازم التقوى . ويجوز أن يكون الموصول بدلا من المتقين أو بيانًا له ، ومحل ﴿**بالغيب**﴾ النصب على الحال ، أى يخشون عذابه وهو غائب عنهم ، أوهم غائبون عنه لأنهم فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة . وقرأ ابن عباس وعكرمة : ﴿ **ضياء** ﴾ بغير واو . قال الفراء : حذف الواو والمجيء بها واحد ، واعترضه الزجاج بأن الواو تجيء لمعنى فلا تزاد ﴿ **وهم من الساعة مشفقون**﴾ أى وهم من القيامة خائفون وجلون ، والإشارة بقوله : ﴿ **وهذا ذكر مبارك**﴾ إلى القرآن . قال الزجاج المعنى : وهذا القرآن ذكر لمن تذكر به وموعظة لمن اتعظ به ، والمبارك كثير البركة والخير . وقوله: ﴿ **أنزلناه** ﴾ صفة ثانية للذكر ، أو خبر بعد خبر ، والاستفهام فى قوله : ﴿**أفأنتم له منكرون**﴾ للإنكار لما وقع منهم من الإنكار ، أى كيف تنكرون كونه منزلا من عند الله مع اعترافكم بأن التوراة منزلة من عنده .

﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده** ﴾ أى الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾ : أنه أعطى رشده قبل إيتاء موسى وهارون التوراة . وقال الفراء : المعنى : أعطيناه هداه من قبل النبوة ، أى وفقناه للنظر والاستدلال لما جنّ عليه الليل فرأى الشمس والقمر والنجم ، وعلى هذا أكثر المفسرين ، وبالأوّل قال أقلهم ﴿ **وكنا به عالمين** ﴾ أنه موضع لإيتاء الرشد ، وأنه يصلح لذلك ، والظرف فى قوله : ﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ متعلق بآتينا أوبمحذوف أى اذكر حين قال ، وأبوه هو آزر ﴿ **وقومه** ﴾ نمروذ ومن اتبعه . والتماثيل : الأصنام . وأصل التمثال : الشيء المصنوع مشابها لشيء من مخلوقات الله سبحانه ، يقال : مثلت الشيء بالشيء : إذا جعلته مشابها له ، واسم ذلك الممثل تمثال ، أنكر عليهم عبادتها بقوله : ﴿ **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾ والعكوف عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء ، واللام فى ﴿ **لها** ﴾

للاختصاص ، ولو كانت للتعدية لجيء بكلمة على، أي ما هذه الأصنام التى أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وقيل : إن العكوف مضمن معنى العبادة .

﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ أجابوه بهذا الجواب الذى هو العصا التى يتوكأ عليها كل عاجز ، والحبل الذى يتشبث به كل غريق ، وهو التمسك بمجرّد تقليد الآباء ، أى وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيًا على طريقتهم، وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية ، وإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين وبرأيه آخذين ، وجوابهم : هو ما أجاب به الخليل هاهنا ﴿ **قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ أى فى خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذى عقل ، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضرّ ولاتنفع ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران ، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنّة رسوله كتابًا قد دوّنت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه أو لتقصير فى البحث فوجد ذلك الدليل من وجده وأبرزه واضح المنار:

كــأنه عــــلم فى رأسه نسار

وقال : هذا كتاب الله أو هذه سنة رسوله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد　　　فمــا آمن فى دينه كمخــاطر

فقالوا كما قال الأوّل :

ما أنـا إلا مــن غزية إن غوت　　　غويت وإن ترشد غزية أرشـد

وقد أحسن من قال :

يــأبى الفتى إلا اتباع الــهوى　　　ومنــهج الحــقّ لــه واضــح

ثم لما سمع أولئك مقالة الخليل قالوا :﴿ **أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ أى أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح ؟ قال مضربًا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد: ﴿ **بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن** ﴾ أى خلقهن وأبدعهنّ ﴿ **وأنا على ذلكم** ﴾ الذى ذكرته لكم من كون ربكم هو ربّ السموات والأرض دون ما عداه ﴿ **من الشاهدين** ﴾ أى العالمين به المبرهنين عليه ، فإن الشاهد على الشيء هو من كان عالمًا به مبرهنا عليه مبينًا له .

وقد أخرج أحمد والترمذى ، وابن جرير فى تهذيبه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن عائشة ؛ أن رجلا قال : يارسول الله ، إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتمهم ، فكيف أنا منهم ؟ فقال له رسول الله

ﷺ : « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافًا لا عليك ولا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتصّ لهم منك الفضل » فجعل الرجل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : « أما تقرأ كتاب الله : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ » فقال له الرجل: يا رسول الله، ما أجد لي ولهم خيرًا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار[1]. رواه أحمد هكذا : حدّثنا أبو نوح قراد ، أخبرنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة فذكره ، وفي معناه أحاديث .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان** ﴾ قال: التوراة. وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : ﴿ **الفرقان** ﴾ : الحق. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة: ﴿ **وهذا ذكر مبارك** ﴾ أي القرآن. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده** ﴾ قال : هديناه صغيرًا ، وفي قوله : ﴿ **ما هذه التماثيل**﴾ قال: الأصنام.

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾.

قوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ أخبرهم أنه سينتقل من المحاجة باللسان إلى تغيير المنكر بالفعل ثقة بالله سبحانه ومحاماة على دينه . والكيد : المكر ، يقال : كاده يكيده كيدًا ومكيدة ،

---

(١) أحمد ٦/ ٢٨٠، ٢٨١ والترمذي في التفسير (٣١٦٥) وقال : « هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن غزوان» . والبيهقي في الشعب (٨٥٨٦) . ط . دار الكتب العلمية .

والمراد هنا الاجتهاد فى كسر الأصنام . قيل: إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك سرًا. وقيل : سمعه رجل منهم ﴿ **بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ أى بعد أن ترجعوا من عبادتها ذاهبين منطلقين . قال المفسرون : كان لهم عيد فى كل سنة يجتمعون فيه ، فقالوا لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ، فقال إبراهيم هذه المقالة . والفاء فى قوله : ﴿ **فجعلهم جذاذا** ﴾ فصيحة ، أى فولوا ، فجعلهم جذاذًا ، الجذّ : القطع والكسر ، يقال : جذذت الشىء قطعته وكسرته ، والواحد: جذاذة ، والجذاذ : ما كسر منه . قاله الجوهرى . قال الكسائى : ويقال لحجارة الذهب : الجذاذ ؛ لأنها تكسر . قرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن: « جذاذًا » بكسر الجيم ، أى كسرًا وقطعًا ، جمع جذيذ ، وهو الهشيم ، مثل . خفيف وخفاف ، وظريف وظراف . قال الشاعر :

جذذ الأصنام فى محرابها ذاك فى الله العلىّ المقتدر

وقرأ الباقون بالضم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم ، أى الحطام والرفات ، فعال بمعنى مفعول ، وهذا هو الكيد الذى وعدهم به. وقرأ ابن عباس وأبو السمال : « جذاذًا » بفتح الجيم ﴿ **إلا كبيرا لهم** ﴾ أى للأصنام ﴿ **لعلهم إليه** ﴾ أى إلى إبراهيم ﴿ **يرجعون** ﴾ فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم . وقيل : لعلهم إلى الصنم الكبير يرجعون فيسألونه عن الكاسر، لأن من شأن المعبود أن يرجع إليه فى المهمات ، فإذا رجعوا إليه لم يجدوا عنده خبرًا ، فيعلمون حينئذ أنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضررًا ، ولا تعلم بخير ولاشرّ ، ولا تخبر عن الذى ينوبها من الأمر ؛ وقيل : لعلهم إلى الله يرجعون ، وهو بعيد جدًا .

﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : فلما رجعوا من عيدهم ورأوا ما حدث بآلهتهم قالوا هذه المقالة ، والاستفهام للتوبيخ . وقيل : إن « من » ليست استفهامية ، بل هى مبتدأ وخبرها ﴿ **إنه لمن الظالمين** ﴾ أى فاعل هذا ظالم ، والأول أولى لقولهم : ﴿ **سمعنا فتى** ﴾ إلخ ، فإنه قال بهذا بعضهم مجيبًا للمستفهمين لهم ، وهذا القائل هو الذى سمع إبراهيم يقول : ﴿ **تالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ ومعنى ﴿ **يذكرهم** ﴾: يعيبهم ، وقد سبق تحقيق مثل هذه العبارة ، وجملة : ﴿ **يقال له إبراهيم** ﴾ صفة ثانية لفتى . قال الزجاج: وارتفع إبراهيم على معنى : يقال له هو إبراهيم ، فهو على هذا خبر مبتدأ محذوف ؛ وقيل : ارتفاعه على أنه مفعول مالم يسمّ فاعله ؛ وقيل : مرتفع على النداء . ومن غرائب التدقيقات النحوية ، وعجائب التوجيهات الإعرابية ، أن الأعلم الشنتمرى الإشبيلى قال : إنه مرتفع على الإهمال. قال ابن عطية : ذهب إلى رفعه بغير شىء. والفتى : هو الشاب ، والفتاة : الشابة.

﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس** ﴾ القائلون هم السائلون ، أمروا بعضهم أن يأتى به ظاهرًا بمرأى من الناس. قيل: إنه لما بلغ الخبر نمروذ وأشراف قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بينة ، فقالوا هذه المقالة ، ليكون ذلك حجة عليه يستحلون بها منه ما قد عزموا على أن يفعلوه به . ومعنى

﴿**لعلهم يشهدون** ﴾ : لعلهم يحضرون عقابه حتى ينزجر غيره عن الاقتداء به فى مثل هذا . وقيل: لعلهم يشهدون عليه بأنهم رأوه يكسر الأصنام ، أو لعلهم يشهدون طعنه على أصنامهم . وجملة : ﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، وفى الكلام حذف تقديره : فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه هل فعل ذلك ؟ لإقامة الحجة عليه فى زعمهم .

﴿ **قال بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ أى قال إبراهيم مقيمًا للحجة عليهم مبكتًا لهم ، بل فعله كبيرهم هذا مشيرًا إلى الصنم الذى تركه ولم يكسره ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ أى إن كانوا ممن يمكنه النطق ويقدر على الكلام ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه . أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح فى العقل أن يطلق عليه أنه إله . فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم فى الاعتراف بأن الجمادات التى عبدوها ليست بآلهة ، لانهم إذا قالوا : إنهم لا ينطقون ، قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده فى المكان الذى هو فيه ؟ فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته . وقيل : أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه ، إرشادًا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تدفع لا تستحسن فى العقل مع وجود خالقها وخالقهم ، والأوّل أولى . وقرأ ابن السميفع : « بل فعله » بتشديد اللام على معنى **بل** فلعل الفاعل كبيرهم .

﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله ، وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين إبراهيم أن من لا يقدر على دفع المضرّة عن نفسه ولا على الإضرار بمن فعل به مافعله إبراهيم بتلك الأصنام يستحيل أن يكون مستحقًا للعبادة ، ولهذا ﴿ **قالوا إنكم أنتم الظالمون**﴾ أى قال بعضهم لبعض : أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات ، وليس الظالم من نسبتم الظلم إليه بقولكم : إنه لمن الظالمين ﴿ **ثم نكسوا على رؤوسهم** ﴾ أى رجعوا إلى جهلهم وعنادهم ، شبه سبحانه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه . وقيل : المعنى : أنهم طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم ، وهو ضعيف ؛ لأنه لم يقل : نكسوا رؤوسهم بفتح الكاف وإسناد الفعل إليهم حتى يصح هذا التفسير، بل قال. نكسوا على رؤوسهم، وقرئ: «نكسوا» بالتشديد، ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ أى قائلين لإبراهيم لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام ، فقال إبراهيم مبكتًا لهم ومزريًا عليهم : ﴿**أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا** ﴾ من النفع ﴿ **ولا يضركم** ﴾ بنوع من أنواع الضرر . ثم تضجر عليه السلام منهم ، فقال : ﴿ **أف لكم ولما تعبدون من دون الله** ﴾ وفى هذا تحقير لهم

ولمعبوداتهم ، واللام فى ﴿ **لكم** ﴾ لبيان المتأفف به ، أى لكم ولآلهتكم ، والتأفف : صوت يدلّ على التضجر ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى ليس لكم عقول تتفكرون بها ، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذى صنعتموه .

﴿ **قالوا حرقوه** ﴾ أى قال بعضهم لبعض لما أعيتهم الحيلة فى دفع إبراهيم ، وعجزوا عن مجادلته ، وضاقت عليهم مسالك المناظرة ، حرّقوا إبراهيم . انصرافًا منهم إلى طريق الظلم والغشم ، وميلاً منهم إلى إظهار الغلبة بأى وجه كان ، وعلى أى أمر اتفق ، ولهذا قالوا : ﴿**وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾ أى انصروها بالانتقام من هذا الذى فعل بها ما فعل إن كنتم فاعلين للنصر . وقيل : هذا القائل هو نمروذ ؛ وقيل رجل من الأكراد . ﴿ **قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم**﴾ فى الكلام حذف تقديره : فأضرموا النار ، وذهبوا بإبراهيم إليها ، فعند ذلك قلنا : يا نار كونى ذات برد وسلام . وقيل : إن انتصاب ﴿ **سلاما** ﴾ على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى وسلمنا سلامًا عليه ﴿ **وأرادوا به كيدا** ﴾ أى مكرًا ﴿ **فجعلناهم الأخسرين**﴾ أى أخسر من كل خاسر ؛ ورددنا مكرهم عليهم ؛ فجعلنا لهم عاقبة السوء ؛ كما جعلنا لإبراهيم عاقبة الخير .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مرّوا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا : قال : إنى سقيم ، وقد كان بالأمس ، قال : ﴿ **تالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ فسمعه ناس منهم ، فلما خرجوا انطلق إلى أهله ، فأخذ طعامًا ثم انطلق إلى آلهتهم فقرّبه إليهم ، فقال : ألا تأكلون ، فكسرها إلا كبيرهم ، ثم ربط فى يده الذى كسر به آلهتهم ، فلما رجع القوم من عيدهم دخلوا ، فإذا هم بآلهتهم قد كسرت ، وإذا كبيرهم فى يده الذى كسر به الأصنام ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ فقال الذين سمعوا إبراهيم يقول : ﴿**تالله لأكيدن أصنامكم**﴾ : ﴿ **سمعنا فتى يذكرهم** ﴾ فجادلهم عند ذلك إبراهيم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ جذاذًا ﴾ قال : حطامًا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : فتاتًا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضًا : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ قال : عظيم آلهتهم . وأخرج أبو داود والترمذى [وابن المنذر] وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم فى شىء قط إلا فى ثلاث كلهنّ فى الله : قوله : ﴿**إنى سقيم** ﴾ ولم يكن سقيمًا ، وقوله لسارة : أختى ، وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ » [(١)] . وهذا الحديث هو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة بأطول من هذا [(٢)] . وقد روى نحو هذا أبو يعلى من حديث أبى سعيد [(٣)] .

---

(١) أبو داود فى الطلاق (٢٢١٢) والترمذى فى التفسير (٣١٦٦) .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٣٥٨) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧١ / ١٥٤) .

(٣) أبو يعلى (١٠٤٠) وإسناده ضعيف ؛ لضعف على بن زيد بن جدعان .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما جمع لإبراهيم ما جمع ، وألقى فى النار جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع ، قال الله : ﴿ **كونى بردا وسلاما** ﴾ فلم يبقَ فى الأرض نار إلا طفئت . وأخرج أحمد وابن ماجة وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم حين ألقى فى النار لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم »، فأمر رسول الله ﷺ بقتله[(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر عن ابن عمر ، قال : أوّل كلمة قالها إبراهيم حين ألقى فى النار : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ﴿ **يا نار كونى** ﴾ قال : كان جبريل هو الذى ناداها. وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيم من بردها . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علىّ نحوه . وأخرج ابن جرير عن معتمر بن سليمان التيمى عن بعض أصحابه قال : جاء جبريل إلى إبراهيم وهو يوثق ليلقى فى النار ، فقال : يا إبراهيم، ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين ، قال : ما كنت أيامًا ولياليَ قط أطيب عيشًا إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾ .

قد تقدّم أن لوطًا هو ابن أخى إبراهيم ، فحكى الله سبحانه هاهنا أنه نجى إبراهيم ولوطًا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . قال المفسرون : وهى أرض الشام ، وكانا بالعراق وسماها سبحانه مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ، ولأنها معادن الأنبياء ؛ وأصل البركة : ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقيل : الأرض المباركة: مكة. وقيل : بيت المقدس ، لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضًا كثيرة الخصب، وقد تقدم تفسير العالمين.

---

(١) أحمد ١٠٩/٦ وابن ماجة فى الصيد (٣٢٣١) وابن حبان (٥٦٠٢) وأبو يعلى (٤٣٥٧) .

ثم قال سبحانه ممتنا على إبراهيم ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ النافلة: الزيادة، وكان إبراهيم قد سأل الله سبحانه أن يهب له ولدًا ، فوهب له إسحاق ، ثم وهب لإسحاق يعقوب من غير دعاء ، فكان ذلك نافلة : أى زيادة ؛ وقيل : المراد بالنافلة هنا: العطية ، قاله الزجاج . وقيل : النافلة هنا : ولد الولد ، لأنه زيادة على الولد ، وانتصاب ﴿ **نافلة** ﴾ على الحال . قال الفراء : النافلة : يعقوب خاصة ، لأنه ولد الولد ﴿ **وكلا جعلنا صالحين** ﴾ أى وكل واحد من هؤلاء الأربعة : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ، لا بعضهم دون بعض جعلناه صالحا عاملاً بطاعة الله تاركًا لمعاصيه . وقيل : المراد بالصلاح هنا : النبوة .

﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات ، ومعنى ﴿ **بأمرنا** ﴾: بأمرنا لهم بذلك ، أى بما أنزلنا عليهم من الوحى ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات** ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . وقيل : المراد بالخيرات : شرائع النبوّات ﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ أى كانوا لنا خاصة دون غيرنا مطيعين ، فاعلين لما نأمرهم به ، تاركين ما ننهاهم عنه. ﴿**ولوطا آتيناه حكما وعلما** ﴾ انتصاب ﴿ **لوطا** ﴾ بفعل مضمر دلّ عليه قوله : ﴿**آتيناه**﴾ أى وآتينا لوطًا آتيناه. وقيل: بنفس الفعل المذكور بعده . وقيل : بمحذوف هو : اذكر ، والحكم: النبوّة . والعلم : المعرفة بأمر الدين . وقيل: الحكم : هو فصل الخصومات بالحق . وقيل: هو الفهم. ﴿ **ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث** ﴾ القرية هى سدوم كما تقدّم ، ومعنى ﴿ **تعمل الخبائث**﴾ : يعمل أهلها الخبائث ، فوصفت القرية بوصف أهلها ، والخبائث التى كانوا يعملونها هى اللواط والضراط وخذف الحصى كما سيأتى ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿ **إنهم كانوا قوم سوء فاسقين** ﴾ أى خارجين عن طاعة الله . والفسوق : الخروج كما تقدّم.

﴿ **وأدخلناه فى رحمتنا** ﴾ بإنجائنا إياه من القوم المذكورين ، ومعنى ﴿ **فى رحمتنا** ﴾ : فى أهل رحمتنا . وقيل : فى النبوة : وقيل : فى الإسلام . وقيل : فى الجنة﴿ **إنه من الصالحين**﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى . ﴿ **ونوحا إذ نادى** ﴾ أى واذكر نوحًا إذ نادى ربه﴿ **من قبل** ﴾ أى من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ دعاءه ﴿ **فنجيناه وأهله من الكرب العظيم**﴾ أى من الغرق بالطوفان ، والكرب : الغمّ الشديد ، والمراد بأهله: المؤمنون منهم . ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى نصرناه نصرًا مستتبعًا للانتقام من القوم المذكورين . وقيل : المعنى : منعناه من القوم . وقال أبو عبيدة : من بمعنى على ، ثم علل سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾ أى لم نترك منهم أحدًا، بل أغرقنا كبيرهم وصغيرهم بسبب إصرارهم على الذنب .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبىّ بن كعب فى قوله: ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾ قال: الشام. وأخرج ابن أبى شيبة عن أبى مالك نحوه. وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال:

لوط كان ابن أخي إبراهيم. وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ قال : ولدًا ﴿ **ويعقوب نافلة** ﴾ قال : ابن الابن . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم نحوه أيضًا. وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ قال: أعطيناه ﴿ **ويعقوب نافلة** ﴾ قال: عطية.

﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)** ﴾.

قوله : ﴿ **وداود** ﴾ معطوف على ﴿ **نوحا** ﴾ ومعمول لعامله المذكور ، أو المقدّر كما مرّ ﴿**وسليمان** ﴾ معطوف على داود ، والظرف في ﴿ **إذ يحكمان** ﴾ متعلق بما عمل في داود ، أي واذكرهما وقت حكمهما . والمراد من ذكرهما ذكر خبرهما . ومعنى ﴿ **في الحرث** ﴾ : في شأن الحرث . وقيل : كان زرعًا . وقيل : كرمًا، واسم الحرث يطلق عليهما ﴿ **إذ نفشت فيه** ﴾ أي تفرقت وانتشرت فيه ﴿ **غنم القوم** ﴾ قال ابن السكيت: النفش بالتحريك أن تنتشر الغنم بالليل من غير راع ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ أي لحكم الحاكمين ، وفيه جواز إطلاق الجمع على الاثنين ، وهو مذهب طائفة من أهل العربية كالزمخشري والرضيّ ، وتقدّمهما إلى القول به الفراء . وقيل: المراد : الحاكمان والمحكوم عليه ، ومعنى ﴿ **شاهدين** ﴾ : حاضرين ، والجملة اعتراضية .

وجملة : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ معطوفة على ﴿ **إذ يحكمان** ﴾ لأنه في حكم الماضي ، والضمير في ﴿ **ففهمناها** ﴾، يعود إلى القضية المفهومة من الكلام ، أو الحكومة المدلول عليها بذكر الحكم . قال المفسرون : دخل رجلان على داود ، وعنده ابنه سليمان ، أحدهما : صاحب

حرث ، والآخر :صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث: إن هذا انفلتت غنمه ليلاً فوقعت فى حرثى فلم تبق منه شيئًا ، فقال : لك رقاب الغنم ، فقال سليمان : أو غير ذلك ، ينطلق أصحاب الكرم بالغنم فيصيبون من ألبانها ومنافعها ويقوم أصحاب الغنم على الكرم حتى إذا كان كليلة نفشت فيه دفع هؤلاء إلى هؤلاء غنمهم ، ودفع هؤلاء إلى هؤلاء كرمهم ، فقال داود : القضاء ما قضيت ، وحكم بذلك . قال النحاس : إنما قضى داود بالغنم لصاحب الحرث لأن ثمنها كانا قريبًا منه ،وأما فى حكم سليمان فقد قيل :كانت قيمة ما نال من الغنم ، وقيمة ما أفسدت الغنم سواء . قال جماعة من العلماء : إن داود حكم بوحى ، وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود ، فيكون التفهيم على هذا بطريق الوحى . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد ، وكلام أهل العلم فى حكم اجتهاد الأنبياء معروف ، وهكذا ما ذكره أهل العلم فى اختلاف المجتهدين ، وهل كل مجتهد مصيب ، أو الحق مع واحد ؟ وقد استدل المستدلون بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب،ولا شك أنها تدل على رفع الإثم عن المخطئ، وأما كون كل واحد منهما مصيبًا ، فلا تدل عليه هذه الآية ولا غيرها ، بل صرّح الحديث المتفق عليه فى الصحيحين وغيرهما أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر [(١)] فسماه النبى ﷺ مخطئًا فكيف يقال إنه مصيب لحكم الله موافق له ، فإن حكم الله سبحانه واحد لا يختلف باختلاف المجتهدين، وإلا لزم توقف حكمه عزّ وجل على اجتهادات المجتهدين، واللازم باطل فالملزوم مثله . وأيضا يستلزم أن تكون العين التى اختلف اجتهاد المجتهدين فيها بالحلّ والحرمة حلالاً وحرامًا فى حكم الله سبحانه. وهذا اللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله . وأيضًا يلزم أن حكم الله سبحانه لا يزال يتجدد عند وجود كل مجتهد له اجتهاد فى تلك الحادثة، ولا ينقطع ما يريده الله سبحانه فيها إلا بانقطاع المجتهدين واللازم باطل فالملزوم مثله . وقد أوضحنا هذه المسألة بما لا مزيد عليه فى المؤلف الذى سميناه « القول المفيد فى حكم التقليد» وفى « أدب الطلب ومنتهى الأرب » فمن أحبّ الوقوف على تحقيق الحق فليرجع إليهما .

فإن قلت : فما حكم هذه الحادثة التى حكم فيها داود وسليمان فى هذه الشريعة المحمدية، والملة الإسلامية ؟ قلت : قد ثبت عن النبى ﷺ من حديث البراء أنه شرع لأمته أن على أهل الماشية حفظها بالليل ، وعلى أصحاب الحوائط حفظها بالنهار [(٢)] ، وأن ما أفسدت المواشى بالليل مضمون على أهلها ، وهذا الضمان هو مقدار الذاهب عينًا أو قيمة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى العمل بما تضمنه هذا الحديث ، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء ، وأدخلوا فسادها فى عموم قول النبى ﷺ : « جرح العجماء جبار » [(٣)] قياسًا لجميع أفعالها

(١) البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٧١٦/ ١٥) .
(٢) الموطأ فى الأقضية ٢ / ٧٤٧ .
(٣) مسلم فى الحدود (١٧١٠ / ٤٥ ، ٤٦) .

على جرحها . ويجاب عنه بأن هذا القياس فاسد الاعتبار ، لأنه فى مقابلة النص ، ومن أهل العلم من ذهب إلى أنه يضمن ربّ الماشية ما أفسدته من غير فرق بين الليل والنهار . ويجاب عنه بحديث البراء .

ومما يدل على أن هذين الحكمين من داود وسليمان كانا بوحى من الله سبحانه لا باجتهاد. قوله : ﴿ **وكلا آتينا حكما وعلما** ﴾ فإن الله سبحانه أخبرنا بأنه أعطى كل واحد منهما هذين الأمرين ، وهما إن كانا خاصين فصدقهما على هذه القضية التى حكاها الله سبحانه عنهما مقدّم على صدقهما على غيرها ، وإن كانا عامين فهذا الفرد من الحكم والعلم ، وهو ما وقع من كل واحد منهما فى هذه القضية أحق أفراد ذلك العام بدخوله تحته ودلالته عليه ، ومما يستفاد من ذلك دفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان بالتفهيم ، من عدم كون حكم داود حكمًا شرعيًا ، أى وكل واحد منهما أعطيناه حكما وعلمًا كثيرًا ، لا سليمان وحده . ولما مدح داود وسليمان على سبيل الاشتراك، ذكر ما يختص بكل واحد منهما ، فبدأ بداود فقال: ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن** ﴾ التسبيح إما حقيقة أو مجاز ، وقد قال بالأوّل جماعة وهو الظاهر . وذلك أن داود كان إذا سبح سبحت الجبال معه. وقيل : إنها كانت تصلى معه إذا صلى ، وهو معنى التسبيح . وقال بالمجاز جماعة آخرون وحملوا التسبيح على تسبيح من رآها تعجبًا من عظيم خلقها وقدرة خالقها . وقيل : كانت الجبال تسير مع داود ، فكان من رآها سائرة معه سبح ﴿**والطير** ﴾ معطوف على الجبال ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره محذوف ، أى والطير مسخرات ، ولا يصح العطف على الضمير فى ﴿ **يسبحن** ﴾ لعدم التأكيد والفصل ﴿ **وكنا فاعلين**﴾ يعنى ما ذكر من التفهيم ، وإيتاء الحكم والتسخير ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ اللبوس عند العرب السلاح كله درعًا كان أو جوشنا ، أو سيفًا ، أو رمحا . قال الهذلى :

وعندى لبوس فى اللباس كأنه . . . . . إلخ

والمراد فى الآية الدروع خاصة ، وهو بمعنى الملبوس ، كالركوب والحلوب ، والجار والمجرور أعنى لكم متعلق بعلمنا ﴿ **ليحصنكم من بأسكم** ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح ﴿ **لتحصنكم** ﴾ بالتاء الفوقية، بإرجاع الضمير إلى الصنعة ، أو إلى اللبوس بتأويل الدرع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل وابن أبى إسحاق « لنحصنكم » بالنون بإرجاع الضمير إليه سبحانه . وقرأ الباقون بالياء بإرجاع الضمير إلى اللبوس ، أو إلى داود، أو إلى الله سبحانه. ومعنى ﴿ **من بأسكم** ﴾ : من حربكم، أو من وقع السلاح فيكم ﴿ **فهل أنتم شاكرون**﴾ لهذه النعمة التى أنعمنا بها عليكم ، والاستفهام فى معنى الأمر .

ثم ذكر سبحانه ما خص به سليمان . فقال : ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ أى وسخرنا له الريح ﴿**عاصفة** ﴾ أى شديدة الهبوب . يقال : عصفت الريح ، أى اشتدت ، فهى ريح عاصف

وعصوف ، وانتصاب ﴿ **الريح** ﴾ [١] على الحال . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسلمى وأبو بكر ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ برفع الريح على القطع مما قبله ، ويكون مبتدأ وخبره تجرى ، وأما على قراءة النصب فيكون محل ﴿ **تجرى بأمره** ﴾ النصب أيضًا على الحالية ، أوعلى البدلية ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها** ﴾ وهى أرض الشام كما تقدم ﴿ **وكنا بكل شىء عالمين** ﴾ أى بتدبير كلّ شىء ﴿ **ومن الشياطين** ﴾ أى وسخرنا من الشياطين ﴿ **من يغوصون له** ﴾ فى البحار ويستخرجون منها ما يطلبه منهم . وقيل : إن « من » مبتدأ وخبره ما قبله ، والغوص: النزول تحت الماء ، يقال غاص فى الماء ، والغواص: الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ ﴿**ويعملون عملا دون ذلك**﴾ قال الفراء : أى سوى ذلك ، وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخرهم فيه ﴿ **وكنا لهم حافظين** ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يهربوا أو يتمنعوا ، أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . قال الزجاج : كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا ، وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوا بالنهار .

﴿ **وأيوب إذ نادى ربه** ﴾ معطوف على ما قبله، والعامل فيه: إما المذكور أو المقدّر كما مرّ، والعامل فى الظرف وهو ﴿ **إذ نادى ربه** ﴾ هو العامل فى أيوب ﴿ **أنى مسنى الضر** ﴾ أى بأنى مسنى الضرّ . وقرئ بكسر « إنى » .

واختلف فى الضر الذى نزل به ماذا هو؟ فقيل إنه قام ليصلى فلم يقدر على النهوض . وقيل : إنه أقرّ بالعجز ، فلا يكون ذلك منافيا للصبر . وقيل : انقطع الوحى عنه أربعين يومًا. وقيل : إن دودة سقطت من لحمه ، فأخذها وردّها في موضعها فأكلت منه ، فصاح : مسنى الضرّ ؛ وقيل :كان الدود يتناول بدنه فيصبر حتى تناولت دودة قلبه . وقيل : إن ضرّه قول إبليس لزوجته: اسجدى لى ، فخاف ذهاب إيمانها ؛ وقيل : إنه تقذره قومه . وقيل : أراد بالضرّ الشماتة ، وقيل غير ذلك . ولما نادى ربه متضرّعًا إليه وصفه بغاية الرحمة فقال : ﴿**وأنت أرحم الراحمين**﴾ فأخبر الله سبحانه باستجابته لدعائه ، فقال : ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر** ﴾ أى شفاه الله مما كان به وأعاضه بما ذهب عليه ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قيل : تركهم الله عز وجلّ له ، وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد بذلك صحيح ، وقد كان مات أهله جميعا إلا امرأته ، فأحياهم الله فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وقيل : كان ذلك بأن ولد له ضعف الذين أماتهم الله ، فيكون معنى الآية على هذا: آتيناه مثل أهله ومثلهم معهم ، وانتصاب ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ على العلة: أى آتيناه ذلك لرحمتنا له ﴿**وذكرى للعابدين**﴾ أى وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر. واختلف فى مدّة إقامته على البلاء : فقيل : سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال . وقيل : ثلاثين سنة . وقيل: ثمانى عشرة سنة .

---

(١) هكذا ، والصحيح « عاصفة » .

﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل** ﴾ أي واذكر هؤلاء ،وإدريس هو أخنوخ ، وذا الكفل : إلياس . وقيل :يوشع بن نون . وقيل :زكريا . والصحيح أنه رجل من بنى إسرائيل كان لا يتورع عن شىء من المعاصى ، فتاب فغفر الله له . وقيل : إن اليسع لما كبر قال : من يتكفل لى بكذا وكذا من خصال الخير حتى أستخلفه ؟ فقال رجل: أنا، فاستخلفه وسمى ذا الكفل . وقيل: كان رجلا يتكفل بشأن كل إنسان إذا وقع فى شىء من المهمات. وقيل غير ذلك . وقد ذهب الجمهور إلى أنه ليس بنبىّ . وقال جماعة : هو نبىّ . ثم وصف الله سبحانه هؤلاء بالصبر فقال :﴿ **كل من الصابرين** ﴾ أى كل واحد من هؤلاء من الصابرين على القيام بما كلفهم الله به . ﴿ **وأدخلناهم فى رحمتنا** ﴾ أى فى الجنة ، أو فى النبوّة، أو فى الخير على عمومه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إنهم من الصالحين** ﴾ أى الكاملين فى الصلاح .

﴿ **وذا النون** ﴾ أى واذكر ذا النون، وهو يونس بن متى، ولقب ذا النون لابتلاع الحوت له، فإن النون من أسماء الحوت . وقيل : سمى ذا النون لأنه رأى صبيا مليحا فقال : دسموا نونته ، لئلا تصيبه العين . وحكى ثعلب عن ابن الأعرابى أن نونة الصبى هى النقبة التى تكون فى ذقن الصبىّ الصغير ، ومعنى دسموا سوّدوا ﴿ **إذ ذهب مغاضبا** ﴾ أى اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضبًا ، أى مراغمًا . قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير : ذهب مغاضبًا لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبى والمهدوى . وحكى عن ابن مسعود : قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ،وهو قول صحيح .والمعنى: مغاضبا من أجل ربه ،كما تقول غضبت لك، أى من أجلك. وقال الضحاك : ذهب مغاضبًا لقومه، وحكى عن ابن عباس. وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبًا للملك الذى كان فى وقته واسمه حزقيا . وقيل : لم يغاضب ربه ولا قومه ولا الملك ، ولكنه مأخوذ من غضب إذا أنف ، وذلك أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف الله عنهم العذاب فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج عنهم؛ ومن استعمال الغضب في هذا المعنى قول الشاعر :

وأغضب أن تهجى تميم بعامر

أى آنف ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **نقدر** ﴾ بفتح النون وكسر الدال . واختلف فى معنى الآية على هذه القراءة . فقيل : معناها : أنه وقع فى ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته . وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير ، وهو قول مردود ، فإن هذا الظنّ بالله كفر ، ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذهب جمهور العلماء أن معناها : فظنّ أن لن نضيق عليه ، كقوله : ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ [الشورى : ١٢] أى يضيق ، ومنه قوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : ٧] .يقال : وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر ، أى ضيق . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ، أى فظنّ أن لن نقضى عليه العقوبة ، قاله قتادة ومجاهد ، واختاره الفراء والزجاج ، مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قال أحمد بن يحيى ثعلب : هو من التقدير ليس من القدرة ،

يقال منه : قدَر الله لك الخير يقدره قدرًا ، وأنشد ثعلب :

فـليست عشيات اللـوى برواجع لنـا أبـدا مـا أورق الـسلم النـضر
ولا عائد ذاك الزمـان الذى مضى تباركت مـا تقـدر يقعْ ولك الشـكر

أى ما تقدره وتقضى به ، ومما يؤيد ما قاله هؤلاء قراءة عمر بن عبد العزيز والزهرى : «فظنّ أن لن نقدّر » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس ، وقرأ ذلك أيضًا قراءة عبيد بن عمير وقتادة والأعرج: « أن لن يقدّر » بضم الياء والتشديد مبنيًا للمفعول ، وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحاق والحسن : « يقدر » بضم الياء وفتح الدال مخففا مبنيا للمفعول . وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرًا قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ، ثم قال : فوالله لئن قدر اللّه علىّ . . . الحديث . كما اختلفوا فى تأويل هذه الآية ، والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا هاهنا مالا يحتاج معه الناظر إلى غيره . والفاء فى قوله : ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ أى كان ما كان من التقام الحوت له ، فنادى فى الظلمات ، والمراد بالظلمات: ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وكان نداؤه : هو قوله : ﴿ **أن لا إله إلا الله أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ أى بأن لا إله إلا أنت . . إلخ ، ومعنى ﴿ **سبحانك** ﴾ تنزيها لك من أن يعجزك شيء ، إنى كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم ؛ قال الحسن وقتادة : هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته ، قال ذلك وهو فى بطن الحوت .

ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : ﴿ **فاستجبنا له** ﴾ دعاءه الذى دعانا به فى ضمن اعترافه بالذنب على ألطف وجه ﴿ **ونجيناه من الغم** ﴾ بإخراجنا له من بطن الحوت حتى قذفه إلى الساحل ﴿ **وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم وما أعددناه لهم من الرحمة ، وهذا هو معنى الآية الأخرى ، وهى قوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [الصافات : ١٤٣، ١٤٤] . قرأ الجمهور: ﴿**ننجى**﴾ بنونين . وقرأ ابن عامر: « نُجِّى » بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمارالمصدر ، أى وكذلك نُجى النجاءُ المؤمنين، كما تقول : ضُرب زيدًا ، أى ضُرب الضربُ زيدًا ، ومنه قول الشاعر :

ولو ولدت قُفَيرة جرو كلب لسبّ بذلك الجرو الكلابا

هكذا قال فى توجيه هذه القراءة الفرّاء وأبوعبيد وثعلب، وخطأها أبوحاتم والزجاج وقالا: هى لحن لأنه نصب اسم ما لم يسمّ فاعله ، وإنما يقال : نجى المؤمنون . ولأبى عبيدة قول آخر، وهو أنه أدغم النون فى الجيم وبه قال القتيبى ، واعترضه النحاس فقال : هذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها ، ثم قال النحاس: لم أسمع فى هذا أحسن من شيء سمعته من علىّ بن سليمان الأخفش قال: الأصل : ننجى ، فحذف

إحدى النونين لاجتماعهما كما يحذف إحدى التاءين لاجتماعهما نحو قوله تعالى: ﴿ولا تفرقوا﴾ [آل عمران : ١٠٣] والأصل : ولا تتفرّقوا . قلت : وكذا الواحدى عن أبى علىّ الفارسى أنه قال : إن النون الثانية تخفى مع الجيم ، ولا يجوز تبيينها ، فالتبس على السامع الإخفاء بالإدغام ، فظنّ أنه إدغام ، ويدلّ على هذا إسكانه الياء من نجى ونصب المؤمنين، ولو كان على ما لم يسمّ فاعله ما سكن الياء ولوجب أن يرفع المؤمنين . قلت : ولا نسلم قوله: إنه لا يجوز تبيينها فقد بينت فى قراءة الجمهور، وقرأ محمد بن السميقع وأبو العالية « وكذلك نجى المؤمنين » على البناء للفاعل ، أى نجى الله المؤمنين .

وقد أخرج ابن جرير عن مرّة فى قوله : ﴿ **إذ يحكمان في الحرث** ﴾ قال : كان الحرث نبتًا فنفشت فيه ليلاً فاختصموا فيه إلى داود ، فقضى بالغنم لأصحاب الحرث ، فمرّوا على سليمان فذكروا ذلك له، فقال : لا ، تدفع الغنم فيصيبون منها ويقوم هؤلاء على حرثهم ، فإذا كان كما كان ردوا عليهم فنزلت :﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾ وقد روى هذا عن مرّة عن ابن مسعود . وأخرج ابن جرير والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث** ﴾ قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته الغنم ، فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبىّ الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿**ففهمناها سليمان** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مسروق نحوه . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه ، ولكنه لم يذكر الكرم . واخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن جرير وابن المنذر، وابن مردويه عنه نحوه بأطول منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا ﴿**نفشت**﴾ قال: رعت. وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حرام ابن محيصة: أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطًا فأفسدت فيه ، فقضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها [(١)]. وقد علل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح المنتقى. وأخرج ابن مردويه من حديث عائشة نحوه ، وزاد فى آخره، ثم تلا هذه الآية ﴿**وداود وسليمان**﴾ الآية. وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «بينما امرأتان معهما ابنان جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى : رحمك الله ، هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » [(٢)] ، وهذا الحديث وإن لم يكن داخلا فيما حكته الآية من حكمهما لكنه من جملة ما وقع لهما .

(١) عبد الرزاق (١٨٤٣٧) وابن أبى شيبة فى الديات (٨٠٢٥) وأحمد ٥/٤٣٥ وأبو داود فى البيوع (٣٥٦٩، ٣٥٧٠) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٣٢) وابن جرير ١٧/ ٤٠ .

(٢) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) ومسلم فى الأقضية (١٧٢٠ / ٢٠) .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة فى قوله : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ قال : يصلين مع داود إذا صلى ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم** ﴾ قال : كانت صفائح ، فأوّل من سردها وحلقها داود عليه السلام . وأخرج ابن أبى شيبة ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان سليمان يوضع له ستمائة ألف كرسى ، ثم يجىء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه ، ثم يجىء أشراف الجنّ فيجلسون مما يلى أشراف الإنس ثم يدعو الطير فتظلهم ، ثم يدعو الريح فتحملهم فتسير مسيرة شهر فى الغداة الواحدة .

وأخرج ابن عساكر والديلمى وابن النجار عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : «قال الله لأيوب : تدرى ما جرمك علىّ حتى ابتليتك ؟ قال : لا يارب ، قال : لأنك دخلت على فرعون فداهنت عنده فى كلمتين»[1] وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : إنما كان ذنب أيوب أنه استعان به مسكين على ظالم يدرؤه فلم يعنه ، ولم يأمر بالمعروف ، ولم ينه الظالم عن ظلم المسكين فابتلاه الله. وفى إسناده جويبر. وأخرج ابن أبى شيبة، وأحمد فى الزهد، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان جاءا يومًا فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما للآخر : لو كان علم الله من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا ، فجزع أيوب من قولهما جزعًا لم يجزع من شىء قط مثله ، فقال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان ، وأنا أعلم مكان جائع فصدّقنى ؛ فصدّق من السماء وهما يسمعان ، ثم قال : اللهمّ إن كنت تعلم أنى لم ألبس قميصًا قط وأنا أعلم مكان عار فصدّقنى ، فصدّق من السماء وهما يسمعان ثم خرّ ساجدًا وقال : اللهمّ بعزّتك لا أرفع رأسى حتى تكشف عنى ، فما رفع رأسه حتى كشف الله عنه . وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال: قيل له : يا أيوب ، إن أهلك لك في الجنة ، فإن شئت أتيناك بهم ، وإن شئت تركناهم لك فى الجنة وعوضناك مثلهم ، قال: لا ، بل اتركهم لى فى الجنة ، قال : فتركوا له فى الجنة وعوّض مثلهم فى الدنيا . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى عن الضحّاك قال : بلغ ابن مسعود أن مروان قال في هذه الآية : ﴿**وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال : أوتى أهلاً غير أهله ، فقال ابن مسعود : بل أوتى أهله بأعيانهم ومثلهم معهم . وأخرج ابن أبى الدنيا وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم والرويانى وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصّ إخوانه ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه

(١) انظر الفردوس (٤٤٦٨) .

أحد . قال : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه اللّه فيكشف عنه ما به ، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك ، فقال أيوب : لا أدرى ما يقول غير أن الله يعلم أنى أمرّ بالرجلين يتنازعان يذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهة أن يذكر الله إلا فى حق ، وكان يخرج لحاجته فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ [ص : ٤٢] فاستبطأته فتلقته وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله المبتلى ووالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحا ؟ قال : فإنى أنا هو ، قال : وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض » (١).

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وذا الكفل** ﴾ قال: رجل صالح غير نبىّ تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ، ففعل ذلك ، فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان في بنى إسرائيل قاض فحضره الموت ، فقال : من يقوم مقامى على أن لا يغضب ، فقال رجل : أنا ، فسمى : ذا الكفل ، فكان ليله جميعًا يصلى ، ثم يصبح صائمًا فيقضى بين الناس ، وذكر قصة . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال : ما كان ذو الكفل نبيا ، ولكن كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يصلى كلّ يوم مائة صلاة فتوفى ، فتكفل له ذو الكفل من بعده ، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والترمذى وحسنه وابن المنذر وابن حبان والطبرانى والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى في شعب الإيمان من طريق سعد مولى طلحة عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « كان الكفل من بنى إسرائيل لايتورّع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت، فقال : ما يبكيك : أكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته ، اذهبى فهى لك ، وقال : والله لا أعصى الله بعدها أبدًا ، فمات من ليلته فأصبح مكتوب على بابه : إن الله قد غفر للكفل » (٢) . وأخرجه

---

(١) أبو يعلى (٣٦١٧) وابن جرير ٢٣/١٠٧ وابن حبان (٢٨٨٧) ، وصححه الحاكم ٢/ ٥٨١ ، ٥٨٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى.

(٢) أحمد ٢/ ٢٣ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن حبان (٣٨٨) والحاكم ٤/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ وقال: «صحيح الإسناد » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧١٠٨ ، ٧١٠٩) ط. دار الكتب العلمية ، قال الإمام ابن كثير : « هذا حديث غريب وقد وقع فى هذه الرواية الكفل من غير إضافة ، وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث :« إن كان الكفل » ، ولم يقل: ذو الكفل فلعله رجل آخر ، والله أعلم » .

الترمذى وحسنه ، والحاكم وابن مردويه من طريق سعد مولى طلحة . وأخرجه ابن مردويه من طريق نافع عن ابن عمر وقال : فيه ذو الكفل .

وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضبا** ﴾ يقول : غضب على قومه ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ يقول : أن لن نقضى عليه عقوبة ولا بلاء فيما صنع بقومه فى غضبه عليهم وفراره ، قال : وعقوبته أخذ النون إياه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ قال : ظنّ أن لن يأخذه العذاب الذى أصابه . وأخرج أحمد في الزهد ، وابن أبى الدنيا وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ قال : ظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر. وأخرج أحمد والترمذى والنسائى ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى في الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ قال: «دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » (١) . وأخرج ابن جرير عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس ابن متى » ، قلت : يارسول الله ، هل ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : « هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا به ، ألم تسمع قوله الله : ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه » (٢) . وأخرج الحاكم من حديثه أيضا نحوه (٣) ، وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » (٤) . وروى أيضا فى الصحيح وغيره من حديث ابن مسعود(٥) . وروى أيضًا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٦) .

﴿ **وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا** ﴾

---

(١) أحمد ١/ ١٧٠ والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٩٢) وابن جرير ١٧/ ٦٥، وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٦١١) .

(٢) ابن جرير ١٧/ ٦٥ .

(٣) صححه الحاكم ٢/ ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ووافقه الذهبى .

(٤) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٧/ ١٦٧) والترمذى فى الصلاة (١٨٣).

(٥) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٢) .

(٦) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٥ ، ٣٤١٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٧ / ١٦٦) .

خَاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **وزكريا** ﴾ أى واذكر خبر زكريا وقت ندائه لربه قال : ﴿ **رب لا تذرنى فردا** ﴾ أى منفردًا وحيدًا لا ولد لى . وقد تقدم الكلام على هذه الآية في آل عمران ﴿ **وأنت خير الوارثين**﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت . فأنت حسبى إن لم ترزقنى ولدًا فإنى أعلم أنك لا تضيع دينك ، وأنه سيقوم بذلك من عبادك من تختاره له وترتضيه للتبليغ . ﴿**فاستجبنا له** ﴾ دعاءه ﴿**ووهبنا له يحيى** ﴾ . وقد تقدّم مستوفى فى سورة مريم ﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾ . قال أكثر المفسرين : إنها كانت عاقرًا فجعلها الله ولودًا ، فهذا هو المراد بإصلاح زوجه. وقيل : كانت سيئة الخلق فجعلها الله سبحانه حسنة الخلق ، ولا مانع من إرادة الأمرين جميعًا ، وذلك بأن يصلح الله سبحانه ذاتها ، فتكون ولودًا بعد أن كانت عاقرًا ، ويصلح أخلاقها فتكون أخلاقها مرضية بعد أن كانت غير مرضية وجملة :﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات** ﴾ للتعليل لما قبلها من إحسانه سبحانه إلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، فالضمير المذكور راجع إليهم . وقيل : هو راجع إلى زكريا وامرأته ويحيى . ثم وصفهم الله سبحانه بأنهم كانوا يدعونه ﴿ **رغبا ورهبا** ﴾ أى يتضرّعون إليه فى حال الرّخاء وحال الشدّة ، وقيل الرغب : رفع بطون الأكف إلى السماء ، والرهب : رفع ظهورها . وانتصاب ﴿ **رغبا** ﴾ و﴿**ورهبا**﴾ على المصدرية . أى يرغبون رغبًا ويرهبون رهبًا ، أو على العلة . أى للرغب والرهب ، أو على الحال ، أى راغبين وراهبين . وقرأ طلحة بن مصرّف « ويدعونا » بنون واحدة ، وقرأ الأعمش بضم الراء فيهما وإسكان ما بعده ، وقرأ ابن وثاب بفتح الراء فيهما مع إسكان ما بعده ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو ، وقرأ الباقون بفتح الراء وفتح ما بعده فيهما ﴿ **وكانوا لنا خاشعين** ﴾ أى متواضعين متضرعين .

﴿ **والتى أحصنت فرجها** ﴾ أى واذكر خبرها ، وهى مريم ، فإنها أحصنت فرجها من الحلال والحرام ولم يمسسها بشر، وإنما ذكرها مع الأنبياء وإن لم تكن منهم لأجل ذكر عيسى ، وما فى ذكر قصتها من الآية الباهرة ﴿ **فنفخنا فيها من روحنا** ﴾ أضاف سبحانه الروح إليه ، وهو للملك تشريفًا وتعظيمًا ، وهو يريد روح عيسى ﴿ **وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ قال الزجاج: الآية فيهما واحدة لأنها ولدته من غير فحل. وقيل : إن التقدير على مذهب سيبويه : وجعلناها

آية وجعلنا ابنها آية كقوله سبحانه : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة: ٦٢] والمعنى : أن الله سبحانه جعل قصتهما آية تامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما . وقيل : أراد بالآية الجنس الشامل، لما لكل واحد منهما من آيات ، ومعنى : ﴿ **أحصنت** ﴾ عفت فامتنعت من الفاحشة وغيرها . وقيل : المراد بالفرج : جيب القميص ، أى أنها طاهرة الأثواب ، وقد مضى بيان مثل هذا فى سورة النساء ومريم .

ثم لما ذكر سبحانه الأنبياء بين أنهم كلهم مجتمعون على التوحيد فقال : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ والأمة : الدّين كما قال ابن قتيبة ، ومنه : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [الزخرف : ٢٢] أى على دين ، كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله . وقيل : المعنى : إن هذه الشريعة التى بينتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة. وقيل: المعنى : إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهى ملة الإسلام . وانتصاب ﴿ **أمة واحدة** ﴾ على الحال ، أى متفقة غير مختلفة، وقرئ : «إن هذه أمتكم» بنصب أمتكم على بدل من اسم إن والخبر أمة واحدة. وقرئ برفع ﴿ **أمتكم** ﴾ ورفع ﴿ **أمة** ﴾ على أنهما خبران . وقيل : على إضمار مبتدأ ، أى هى أمة واحدة . وقرأ الجمهور برفع ﴿ أمتكم ﴾ على أنه الخبر ونصب ﴿ **أمة** ﴾ على الحال كما قدمنا . وقال الفراء والزجاج : على القطع بسبب مجىء النكرة بعد تمام الكلام ﴿ **وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ خاصة ، لا تعبدوا غيرى كائنًا ما كان .

﴿ **وتقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ أى تفرقوا فرقًا فى الدين حتى صار كالقطع المتفرّقة . وقال الأخفش: اختلفوا فيه، وهو كالقول الأول. قال الأزهرى: أى تفرقوا فى أمرهم، فنصب أمرهم بحذف فى، والمقصود بالآية المشركون، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله. وقيل: المراد : جميع الخلق ، وأنهم جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعًا وتقسموه بينهم ، فهذا موحد، وهذا يهودى، وهذا نصرانى، وهذا مجوسى، وهذا عابد وثن. ثم أخبر سبحانه بأن مرجع الجميع إليه فقال: ﴿ **كل إلينا راجعون** ﴾ أى كل واحد من هذه الفرق راجع إلينا بالبعث، لا إلى غيرنا.

﴿ **فمن يعمل من الصالحات** ﴾ أى من يعمل بعض الأعمال الصالحة ، لا كلها ، إذ لا يطيق ذلك أحد ﴿ **وهو مؤمن** ﴾ بالله ورسله واليوم الآخر ﴿ **فلا كفران لسعيه** ﴾ أى لا جحود لعمله، ولا تضييع لجزائه ، والكفر ضدّ الإيمان ،والكفر أيضًا جحود النعمة وهو ضدّ الشكر ، يقال: كفر كفورًا وكفرانًا ، وفى قراءة ابن مسعود: « فلا كفر لسعيه ». ﴿ **وإنا له كاتبون** ﴾ أى لسعيه حافظون، ومثله قوله سبحانه: ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ [آل عمران: ١٩٥] .

﴿ **وحرام على قرية أهلكناها** ﴾ . قرأ زيد بن ثابت وأهل المدينة ﴿ **وحرام** ﴾ وقرأ أهل الكوفة : « وحرم » وقد اختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبوحاتم ، ورويت القراءة الثانية عن علىّ

وابن مسعود وابن عباس : وهما لغتان مثل حلّ وحلال . وقرأ سعيد بن جبير « وحرم » بفتح الحاء وكسر الراء وفتح الميم . وقرأ عكرمة وأبو العالية « حرم » بضم الراء وفتح الحاء والميم ، ومعنى ﴿ **أهلكناها** ﴾ : قدّرنا إهلاكها ، وجملة : ﴿ **أنهم لا يرجعون** ﴾ فى محلّ رفع على أنه مبتدأ وخبره ﴿ **حرام** ﴾ أو على أنه فاعل له سادّ مسدّ خبره . والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا للجزاء ؛ وقيل إن ﴿ **لا** ﴾ في ﴿ **لا يرجعون** ﴾ زائدة أى حرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا واختار هـذا أبو عبيد . وقيل : إن لفظ حرام هنا بمعنى الواجب ، أى واجب على قرية ، ومنه قول الخنساء :

وإن حرامًا لا أرى الدهر باكيًا　　　على شجوه إلا بكيت على صخر

وقيل : حرام : أى ممتنع رجوعهم إلى التوبة ، على أن لا زائدة . قال النحاس : والآية مشكلة ، ومن أحسن ما قيل فيها وأجله ما رواه ابن عيينة وابن علية وهشيم وابن إدريس ومحمد ابن فضيل وسليمان بن حيان ومعلى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية قال : واجب أنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون . قال الزجاج وأبو على الفارسى : إن في الكلام إضمارًا ، أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ،أو بالختم على قلوب أهلها ، أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون ، أى لا يتوبون .

﴿ **حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج** ﴾: «حتى» هذه هى التى يحكى بعدها الكلام، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس ، والمراد بفتح يأجوج ومأجوج فتح السدّ الذى عليهم ، على حذف المضاف . وقيل إن حتى هذه هى التى للغاية. والمعنى : أن هؤلاء المذكورين سابقا مستمرّون على ما هم عليه إلى يوم القيامة ، وهى يوم فتح سد يأجوج ومأجوج ﴿ **وهم من كل حدب ينسلون** ﴾ الضمير ليأجوج ومأجوج ،والحدب كلّ أكمة من أرض مرتفعة والجمع أحداب، مأخوذ من حدبة الأرض ، ومعنى ﴿ **ينسلون** ﴾ يسرعون . وقيل : يخرجون . قال الزجاج : والنسلان مشية الذئب إذا أسرع . يقال : نسل فلان فى العدو ينسل بالكسر والضم نسلا ونسولا ونسلانا، أى أن يأجوج ومأجوج من كلّ مرتفع من الأرض يسرعون المشى ويتفرقون فى الأرض؛ وقيل : الضمير فى قوله : ﴿ **وهم** ﴾ لجميع الخلق ؛ والمعنى : أنهم يحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلّ مرتفع من الأرض. وقرئ بضم السين . حكى ذلك المهدوى عن ابن مسعود . وحكى هذه القراءة أيضًا الثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء.

﴿ **واقترب الوعد** ﴾ عطف على ﴿ **فتحت** ﴾ والمراد ما بعد الفتح من الحساب . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : المراد بالوعد الحق : القيامة والواو زائدة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق وهو القيامة ، فاقترب جواب إذا ، وأنشد الفراء :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى

أى انتحى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات: ١٠٣ ، ١٠٤]

وأجاز الفراء أن يكون جواب إذا ﴿ **فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا** ﴾ وقال البصريون : الجواب محذوف، والتقدير: قالوا: ياويلنا. وبه قال الزجاج، والضمير فى ﴿ **فإذا هى** ﴾ للقصة، أو مبهم يفسره ما بعده ، وإذا للمفاجأة . وقيل : إن الكلام تمّ عند قوله: ﴿ **هى** ﴾، والتقدير: ﴿**فإذا هي**﴾ يعنى القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتدأ فقال: ﴿**شاخصة أبصار الذين كفروا**﴾ على تقديم الخبر على المبتدأ، أى أبصار الذين كفروا شاخصة. و﴿ **يا ويلنا** ﴾ على تقدير القول ﴿ **قد كنا فى غفلة من هذا**﴾ أى من هذا الذى دهمنا من البعث والحساب ﴿ **بل كنا ظالمين** ﴾ أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، أى لم نكن غافلين بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الانقياد للرسل .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وأصلحنا له زوجه** ﴾ قال : كان في لسان امرأة زكريا طول فأصلحه الله . وروى نحو ذلك عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال: وهبنا له ولدها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : كانت عاقرًا فجعلها الله ولودًا ووهب له منها يحيى ، وفي قوله: ﴿**وكانوا لنا خاشعين** ﴾ قال : أذلاء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يدعوننا رغبا ورهبا** ﴾ قال : رغبًا في رحمة الله ورهبًا من عذاب الله . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه : ﴿**ويدعوننا رغبا ورهبا** ﴾ قال : « رغبًا هكذا ورهبًا هكذا » وبسط كفيه ، يعنى جعل ظهرهما للأرض في الرغبة وعكسه في الرهبة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم وصححه ، والبيهقى في الشعب عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر الصديق فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾ قال : إن هذا دينكم دينا واحدا . وأخرج ابن جرير عن مجاهد مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله : ﴿**وتقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ قال تقطعوا : اختلفوا فى الدين . وأخرج الفريابى وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى في الشعب عن ابن عباس فى قوله :﴿ **وحرام على قرية أهلكناها** ﴾ قال : وجب إهلاكها ﴿ **أنهم لا يرجعون** ﴾ قال :لا يتوبون .وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « وحرم على قرية » قال : وجب على قرية ﴿ **أهلكناها أنهم لا يرجعون** ﴾ كما قال : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس : ٣١] . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة وسعيد بن جبير مثله. وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من كل حدب** ﴾ قال

شرف ﴿ ينسلون ﴾ قال : يقبلون ، وقد ورد في صفة يأجوج ومأجوج وفي وقت خروجهم أحاديث كثيرة لا يتعلق بذكرها هنا كثير فائدة .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾ .

بين سبحانه حال معبودهم يوم القيامة فقال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ وهذا خطاب منه سبحانه لأهل مكة ، والمراد بقوله : ﴿ وما تعبدون ﴾ : الأصنام التي كانوا يعبدون . قرأ الجمهور : ﴿حصب ﴾ بالصاد المهملة ، أي وقود جهنم وحطبها ، وكل ما أوقدت به النار أو هيجتها به فهو حصب ، كذا قال الجوهري . قال أبو عبيدة : كل ما قذفته في النار فقد حصبتها به ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة﴾ [البقرة : ٢٤] وقرأ عليّ بن أبي طالب وعائشة : « حطب جهنم » بالطاء ، وقرأ ابن عباس : « حضب » بالضاد المعجمة . قال الفراء : ذكر لنا أن الحضب في لغة أهل اليمن: الحطب . ووجه إلقاء الأصنام في النار مع كونها جمادات لا تعقل ذلك ولا تحسّ به : التبكيت لمن عبدها ، وزيادة التوبيخ لهم وتضاعف الحسرة عليهم. وقيل: إنها تحمى فتلصق بهم زيادة في تعذيبهم ، وجملة: ﴿ أنتم لها واردون ﴾ إما مستأنفة أو بدل من ﴿حصب جهنم﴾ والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبًا، واللام في ﴿ لها ﴾ للتقوية لضعف عمل اسم الفاعل . وقيل : هي بمعنى على ، والمراد بالورود هنا: الدخول . قال كثير من أهل العلم : ولا يدخل في هذه الآية عيسى وعزير والملائكة ، لأن ﴿ ما ﴾ لمن لا يعقل ، ولو أراد العموم لقال : ومن يعبدون. قال الزجاج : ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم .

﴿ **لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها** ﴾ أى لو كانت هذه الأصنام آلهة كما تزعمون ، ما وردوها أى ماورد العابدون هم والمعبودون النار . وقيل : ما ورد العابدون فقط ، لكنهم وردوها فلم يكونوا آلهة ، وفي هذا تبكيت لعباد الأصنام وتوبيخ شديد ﴿ **وكل فيها خالدون** ﴾ أى كلّ العابدين والمعبودين في النار خالدون لا يخرجون منها ﴿ **لهم فيها زفير** ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار ، والزفير صوت نفس المغموم ، والمراد هنا : الأنين والتنفس الشديد ، وقد تقدم بيان هذا فى هود . ﴿ **وهم فيها لا يسمعون** ﴾ أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدّة الهول . وقيل : لا يسمعون شيئًا ، لأنهم يحشرون صمًا كما قال سبحانه: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾ [الإسراء : ٩٧] . وإنما سلبوا السماع ، لأن فيه بعض تروّح وتأنس ، وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون ما يسوؤهم .

ثم لما بين سبحانه حال هؤلاء الأشقياء شرع في بيان حال السعداء فقال : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ أى الخصلة التي هى أحسن الخصال وهى السعادة . وقيل : التوفيق ، أو التبشير بالجنة ، أو نفس الجنة . ﴿ **أولئك عنها مبعدون** ﴾ إشارة إلى الموصوفين بتلك الصفة ﴿**عنها** ﴾ أى عن جهنم ﴿ **مبعدون** ﴾ لأنهم قد صاروا في الجنة . ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ الحسّ والحسيس : الصوت تسمعه من الشيء يمرّ قريبًا منك . والمعنى : لا يسمعون حركة النار وحركة أهلها ، وهذه الجملة بدل من ﴿ **مبعدون** ﴾ أو حال من ضميره ﴿ **وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون** ﴾ أى دائمون ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذّ به الأعين كما قال سبحانه : ﴿ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ [فصلت : ٣١]. ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قرأ أبو جعفر وابن محيصن : « لا يحزنهم » بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ الباقون ﴿**لا يحزنهم** ﴾ بفتح الياء وضم الزاى. وقال اليزيدى : حزنه لغة قريش ،وأحزنه لغة تميم . والفزع الأكبر : أهوال يوم القيامة من البعث والحساب والعقاب ﴿ **وتتلقاهم الملائكة** ﴾ أى تستقبلهم علي أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون لهم : ﴿ **هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ أى توعدون به في الدنيا وتبشرون بما فيه ، هكذا قال جماعة من المفسرين إن المراد بقوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ إلى هنا هم كافة الموصوفين بالإيمان والعمل الصالح ، لا المسيح وعزير والملائكة، وقال أكثر المفسرين : إنه لما نزل ﴿ **إنكم وما تعبدون** ﴾ الآية أتى ابن الزبعرى إلى رسول الله ﷺ فقال :يا محمد، ألست تزعم أن عزيراً رجل صالح ، وأن عيسى رجل صالح ، وأن مريم امرأة صالحة ؟ قال : « بلى » فقال: فإن الملائكة وعيسى وعزيرا ومريم يعبدون من دون الله ، فهؤلاء في النار ، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ وسيأتى بيان من أخرج هذا قريبًا إن شاء الله .

﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج والزهرى : «تطوى» بمثناة فوقية مضمومة ورفع السماء ، وقرأ مجاهد : « يطوى » بالتحتية المفتوحة سبنيًا للفاعل على معنى يطوى الله السماء ، وقرأ الباقون ﴿ **نطوى** ﴾ بنون العظمة

وانتصاب ﴿ **يوم** ﴾ بقوله : ﴿ **نعيده** ﴾ أى نعيده يوم نطوى السماء ، وقيل : هو بدل من الضمير المحذوف في توعدون ، والتقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى . وقيل : بقوله : ﴿**لا يحزنهم الفزع** ﴾ وقيل : بقوله :﴿ **تتلقاهم** ﴾. وقيل : متعلق بمحذوف ، وهو اذكر ، وهذا أظهر وأوضح ، والطىّ ضد النشر . وقيل : المحو، والمراد بالسماء : الجنس ، والسجل: الصحيفة ، أى طيًا كطىّ الطومار . وقيل : السجل : الصك ، وهو مشتق من المساجلة وهى المكاتبة، وأصلها من السجل، وهو الدلو ، يقال : ساجلت الرجل : إذا نزعت دلوًا ونزع دلوًا ، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام، ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

من يساجلنى يساجل ماجدًا ... يملأ الدلو إلي عقد الكرب

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير : « السجل » بضم السين والجيم وتشديد اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام ،والطىّ في هذه الآية يحتمل معنين : أحدهما: الطىّ الذي هو ضدّ النشر، ومنه قوله : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾ [الزمر: ٦٧] والثانى : الإخفاء والتعمية والمحو ، لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها ويكدّر نجومها. وقيل: السجل اسم ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم . وقيل : هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ ، والأول أولى . وقرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : ﴿**للكتب**﴾ جمعًا ، وقرأ الباقون ﴿ **للكتاب** ﴾ وهو متعلق بمحذوف حال من السجل ، أى كطىّ السجل كائنًا للكتب أو صفة له ، أى الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها، فسجلها بعض أجزائها ، وبه يتعلق الطىّ حقيقة . وأما علي القراءة الثانية فالكتاب مصدر، واللام للتعليل ، أى كما يطوى الطومار للكتابة ، أى ليكتب فيه، أو لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة ، وهذا على تقدير أن المراد بالطىّ المعنى الأوّل ، وهو ضد النشر ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم وأخرجناهم إلى الأرض حفاة عراة غرًلا كذلك نعيدهم يوم القيامة، فأوّل خلق مفعول نعيد مقدرًا يفسره نعيده المذكور، أو مفعول لبدأنا وما كافة أو موصولة ، والكاف متعلقة بمحذوف ، أى نعيد مثل الذى بدأناه نعيده ، على هذا الوجه يكون أوّل ظرف لبدأنا، أو حال ، وإنما خص أوّل الخلق بالذكر تصويرًا للإيجاد عن العدم ، والمقصود بيان صحة الإعادة بالقياس على المبدأ للشمول الإمكانى الذاتى لهما وقيل معنى الآية : نهلك كل نفس كما كان أول مرة ، وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : ﴿ **يوم نطوى السماء** ﴾. وقيل : المعنى : نغير السماء ، ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها وزوالها ، والأول أولى ، وهو مثل قوله: ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرة ﴾ [الأنعام : ٩٤]، ثم قال سبحانه: ﴿ **وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ انتصاب ﴿ **وعدا** ﴾ علي أنه مصدر ، أى وعدنا وعدًا علينا إنجازه والوفاء به. وهو البعث والإعادة ، ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿**إنا كنا فاعلين**﴾ . قال الزجاج : معنى ﴿**إنا كنا فاعلين** ﴾ : إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : إنا كنا فاعلين ما وعدناكم ، ومثله قوله : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ [المزمل : ١٨] .

﴿ **ولقد كتبنا فى الزبور** ﴾ الزبر فى الأصل : الكتب ، يقال : زبرت ، أى كتبت وعلى هذا يصح إطلاق الزبور على التوراة والإنجيل ، وعلى كتاب داود المسمى بالزبور . وقيل : المراد به هنا : كتاب داود ، ومعنى ﴿ **من بعد الذكر** ﴾ أى اللوح المحفوظ . وقيل : هو التوراة ، أى والله لقد كتبنا فى كتاب داود من بعد ما كتبنا فى التوراة أو من بعد ما كتبنا فى اللوح المحفوظ ﴿**أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**﴾ . قال الزجاج : الزبور جميع الكتب : التوراة والإنجيل والقرآن ، لأن الزبور والكتاب فى معنى واحد ، يقال : زبرت وكتبت ، ويؤيد ماقاله قراءة حمزة فى الزبور بضم الزاى ، فإنه جمع زبر . وقد اختلف فى معنى ﴿ **يرثها عبادى الصالحون**﴾ فقيل: المراد : أرض الجنة ، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ [الزمر: ٧٤] . وقيل : هى الأرض المقدّسة . وقيل : هى أرض الأمم الكافرة يرثها نبينا ﷺ وأمته بفتحها . وقيل : المراد بذلك : بنو إسرائيل ، بدليل قوله سبحانه : ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها﴾ [الأعراف : ١٣٧] والظاهر أن هذا تبشير لأمة محمد ﷺ بوراثة أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين . وقرأ حمزة : « عبادى » بتسكين الياء ، وقرأ الباقون بتحريكها .

﴿ **إن في هذا لبلاغا** ﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه ﴿ **لبلاغا** ﴾: لكفاية ، يقال: فى هذا الشىء بلاغ وبلغة وتبلغ ، أى كفاية . وقيل : الإشارة بقوله : ﴿ **إن في هذا** ﴾ إلى القرآن ﴿ **لقوم عابدين** ﴾ أى مشغولين بعبادة الله مهتمين بها . والعبادة هى : الخضوع والتذلل ، وهم أمة محمد ﷺ ، ورأس العبادة الصلاة . ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ أى وما أرسلناك يامحمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس ، والاستثناء مفرغ من أعمّ الأحوال والعلل ، أى ما أرسلناك لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة ، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين، قيل : ومعنى كونه رحمة للكفار : أنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال. وقيل : المراد بالعالمين : المؤمنون خاصة ، والأوّل أولى بدليل قوله سبحانه : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

ثم بين سبحانه أن أصل تلك الرحمة هو التوحيد والبراءة من الشرك فقال : ﴿ **قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد** ﴾ إن كانت « ما » موصولة فالمعنى : أن الذى يوحى إلىّ هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها أو يضادها ، وإن كانت « ما » كافة فالمعنى : أن الوحى إلىّ مقصور على استئثار الله بالوحدة ، ووجه ذلك أن القصر أبدًا يكون لما يلى إنما، فإنما الأولى لقصر الوصف علي الشىء كقولك : إنما يقوم زيد ، أى ما يقوم إلا زيد . والثانية لقصر الشىء على الحكم كقولك : إنما زيد قائم ، أى ليس به إلا صفة القيام ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ منقادون مخلصون للعبادة ولتوحيد الله سبحانه .

﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى أعرضوا عن الإسلام ﴿ **فقل** ﴾ لهم ﴿ **آذنتكم على سواء** ﴾ أى أعلمتكم أنا وإياكم حرب لا صلح بيننا كائنين على سواء فى الإعلام لم أخصّ به بعضكم دون بعض كقوله سبحانه : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ [الأنفال : ٥٨] أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضًا سوّيت بينهم فيه. وقال الزجاج : المعنى : أعلمتكم ما يوحى إلىّ على استواء في العلم به ، ولا أظهر لأحد شيئًا كتمته على غيره ﴿ **وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون** ﴾ أى ما أدرى ما توعدون به قريب حصوله أم بعيد ، وهو غلبة الإسلام وأهله على الكفر وأهله . وقيل : المراد بما توعدون : القيامة. وقيل: آذنتكم بالحرب ولكن لا أدرى ما يؤذن لى فى محاربتكم ﴿ **إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون** ﴾ أى يعلم سبحانه ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه ﴿**وإن أدرى لعله فتنة لكم** ﴾ أى ما أدرى لعلّ الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنعكم ﴿**ومتاع إلى حين** ﴾ أى وتمتيع إلى وقت مقدّر تقتضيه حكمته.

ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **قال رب احكم بالحق** ﴾ أى احكم بينى وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك ففوّض الأمر إليه سبحانه . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن : « رب » بضم الباء قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين لا يجوز عندهم : رجل أقبل ، حتى يقول : يارجل . وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب : « أحكم » بقطع الهمزة وفتح الكاف وضم الميم ، أى قال محمد : ربى أحكم بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدرى : «أحكم» بصيغة الماضى، أى أحكم الأمور بالحق. وقرئ: «قل» بصيغة الأمر ، أى قل يا محمد. قال أبو عبيدة : الصفة هنا أقيمت مقام الموصوف ، والتقدير: ربّ احكم بحكمك الحق، ﴿**رب**﴾ فى موضع نصب ، لأنه منادى مضاف إلى الضمير ، وقد استجاب سبحانه دعاء نبيه ﷺ فعذبهم ببدر ، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين . ثم قال سبحانه متممًا لتلك الحكاية : ﴿ **وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾ من الكفر والتكذيب ، فـ﴿ **ربنا** ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ **الرحمن** ﴾ أى هو كثير الرحمة لعباده ، ﴿ **المستعان** ﴾ خبر آخر ، أى المستعان به فى الأمور التى من جملتها ما تصفونه من أن الشوكة تكون لكم ، ومن قولكم : ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ [الأنبياء : ٣] وقولكم : ﴿ اتخذ الرحمن ولدا ﴾ [مريم: ٨٨] وكثيرًا ما يستعمل الوصف فى كتاب الله بمعنى الكذب كقوله : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ [الأنبياء: ١٨] وقوله : ﴿ سنجزيهم وصفهم ﴾ [الأنعام : ١٣٩] وقرأ المفضل والسلمى : «على ما يصفون » بالياء التحتية. وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب .

وقد أخرج الفريابى وعبد بن حميد ، وأبو داود في ناسخه ، وابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : لما نزل : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ قال المشركون : فالملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله ، فنزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**﴾ عيسى

وعزير والملائكة [١] . وأخرج ابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه قال : جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جنهم أنتم لها واردون** ﴾ قال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ، فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون. وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ [الزخرف : ٥٧ ، ٥٨] ثم نزلت : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ . وأخرج أبو داود فى ناسخه وابن المنذر والطبرانى من وجه آخر عنه أيضًا نحوه بأطول منه . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ قال : « عيسى وعزير والملائكة » .

وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى قوله : ﴿ **حصب جنهم** ﴾ قال : شجر جهنم ، وفى إسناده العوفى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه من وجه آخر أن ﴿ **حصب جهنم** ﴾ وقودها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : هو حطب جهنم بالزنجية . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ في قوله : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ قال : « حيات على الصراط تقول : حس حس » . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عثمان النهدى في قوله: ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ قال :حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قالوا: حس حس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عن محمد بن حاطب قال: سئل علىّ عن هذه الآية: ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى** ﴾ قال : هو عثمان وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾ يقول : لا يسمع أهل الجنة حسيس النار إذا نزلوا منزلهم من الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر** ﴾ قال : النفخة الآخرة ، وفى إسناده العوفى . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة على كثبان المسك لا يهولهم الفزع الأكبر يوم القيامة : رجل أمّ قومًا وهم به راضون ، ورجل كان يؤذن في كل يوم وليلة ، وعبد أدّى حقّ الله وحقّ مواليه » [٢] . وأخرج عبد بن حميد عن علىّ في قوله : ﴿ **كطى السجل** ﴾ قال : ملك . وأخرج عبد بن حميد عن عطية مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : السجل : ملك ، فإذا صعد بالاستغفار قال : اكتبوها نورا . وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن أبى جعفر الباقر قال : السجل : ملك. وأخرج أبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، وابن منده فى المعرفة ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه

---

(١) ابن جرير ١٧/ ٧٧ والطبرانى (١٢٧٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ٣٨٥ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ٢/ ٢٦ والترمذى فى البر والصلة (١٩٨٦) وقال : « هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث سفيان الثورى عن أبى اليقظان ». وفى المطبوعة « وهم له راضون » و التصويب من أحمد والترمذى .

وصححه عن ابن عباس قال : السجل : كاتب للنبى ﷺ . وأخرج ابن المنذر وابن عدىّ وابن عساكر عن ابن عباس قال : كان لرسول الله ﷺ كاتب يسمى : السجل ، وهو قوله : ﴿**يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب**﴾ قال : كما يطوى السجل الكتاب كذلك نطوى السماء . وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم فى المعرفة وابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن ابن عمر قال: كان للنبى ﷺ كاتب يقال له : السجل ، فأنزل الله : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب** ﴾ .

قال ابن كثير في تفسيره بعد إخراج هذا الحديث : وهذا منكر جدًا من حديث نافع عن ابن عمر ، لا يصح أصلا . قال: وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لا يصح أيضًا . وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ، وإن كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزى ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءًا له علي حدة ، ولله الحمد . قال : وقد تصدّى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردّه أتمّ رد ، وقال : ولا نعرف في الصحابة أحدًا اسمه سجلّ ، وكتاب النبى ﷺ كانوا معروفين ، وليس فيهم أحد اسمه السجل . وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث . وأما من ذكر في أسماء الصحابة هذا فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم . قال : والصحيح عن ابن عباس أن السجلّ هو الصحيفة ، قاله علىّ بن أبى طلحة والعوفي عنه . ونصّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة ، فعلى هذا يكون معنى الكلام : يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتاب : أى علي الكتاب ، يعنى المكتوب كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ [الصافات : ١٠٣] أى على الجبين ، وله نظائر في اللغة والله أعلم . قلت : أما كون هذا هو الصحيح عن ابن عباس فلا ، فإن علىّ بن أبى طلحة والعوفىّ ضعيفان، فالأولى التعويل على معنى اللغوى والمصير إليه. وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ **السجل** ﴾ هو الرجل ، زاد ابن مردويه : بلغة الحبشة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس في تفسير الآية قال : كطىّ الصحيفة علي الكتاب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ يقول : نهلك كل شيء كما كان أوّل مرّة. وأخرج ابن أبى حاتم عنه في قوله : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر** ﴾ قال : القرآن ﴿ **أن الأرض** ﴾ قال : أرض الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضًا : ﴿**ولقد كتبنا فى الزبور** ﴾ قال : الكتب ﴿**من بعد الذكر** ﴾ قال: التوراة. وفي إسناده العوفى . وأخرج سعيد بن منصور عنه أيضًا ، قال : الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن . والذكر : الأصل الذى نسخت منه هذه الكتب الذى فى السماء . والأرض : أرض الجنة . وأخرج الفريابى وابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ قال : أرض الجنة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : أخبر الله سبحانه فى التوراة

والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد الأرض، ويدخلهم الجنة ، وهم الصالحون ، وفى قوله: ﴿ **لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال: عالمين ، وفى إسناده علىّ بن أبى طلحة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبى هريرة : ﴿ **إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : الصلوات الخمس . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم والديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : فى قول الله : ﴿ **إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : « فى الصلوات الخمس شغلاً للعبادة » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ **لبلاغا لقوم عابدين** ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس فى المسجد الحرام جماعة » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ قال : من آمن تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم في عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف . وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ادع الله على المشركين ، قال : « إنى لم أبعث لعانًا ، وإنما بعثت رحمة » (١). وأخرج الطيالسى وأحمد والطبرانى ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين »(٢). وأخرج أحمد والطبرانى عن سلمان أن رسول الله ﷺ قال : « أيما رجل من أمتى سببته سبة في غضبى أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما يغضبون ، وإنما بعثنى رحمة للعالمين ، فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة» (٣). وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا رحمة مهداة » (٤) وقد روى معنى هذا من طرق .

وأخرج ابن أبى خيثمة وابن عساكر عن الربيع بن أنس قال : لما أسرى بالنبىّ ﷺ رأى فلانًا ، وهو بعض بنى أمية على المنبر يخطب الناس ، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ يقول : هذا الملك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وإن أدرى لعله فتنة لكم** ﴾ يقول : ما أخبركم به من العذاب والساعة ، لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿**قل رب احكم بالحق** ﴾ قال : لا يحكم الله إلا بالحق ، وإنما يستعجل بذلك في الدنيا يسأل ربه .

---

(١) مسلم في البر والصلة (٢٥٩٩ / ٨٧) .

(٢) أحمد ٥/ ٢٥٧ وهو جزء من حديث طويل والطبرانى (٧٨٠٣) وقال الهيثمى في المجمع ٥/ ٧٢ :« فيه على ابن زيد وهو ضعيف » وأبو نعيم فى الدلائل ص ٩ .

(٣) أحمد ٥/ ٤٣٧ والطبرانى (٦١٥٦) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ١/ ١٥٨ .